دروس
في مناهج التفسير

الـــكـــتـــاب: دروس في مناهج التفسير

إعـــداد ونشـــر: جمعيّة القرآن الكريم للتوجيه والإرشاد

الطبعة الأولى: ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

دروس في مناهج التفسير

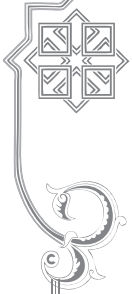

بسم اللّه الرحمن الرحيم

مقدّمـــــة

الحمد للّه ربّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف خلق اللّه محمّد وعلى آله الطاهرين وصحبه المنتجبين.

يقول الله عزّ وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[1].

لا بد من علم التفسير لنفهم كتاب اللّه المنزّل على نبيه محمد ﷺ ولنبيِّن معانيه، ونستخرج أحكامه وحكمه، من خلال الاستفادة من علم اللغة والنحو والصرف، وعلم البيان، وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج علم التفسير كذلك إلى معرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ.

فعلم التفسير يكشف به عن معاني القرآن الكريم، عن طريق العلم بنزول الآيات القرآنية وشؤونها وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكِّيِّها ومدنيِّها، ومحكمها ومتشابِهِهَا، وناسخِهَا ومنسوخِهَا، وخاصِهَا وعامِّها، ومطلَقها ومُقيدها، ومجملها ومفصَّلِها، وحلالها وحرامها، وَوَعْدِهَا ووعِيدِهَا، وأمرِهَا ونَهْيِهَا، وعِبَرِهَا وأمثالِها إلى غير ذلك.

(١) آل عمران /٧.

من هنا رأت جمعية القرآن الكريم أن تخصص هذه المادة لتتعرف من خلالها على مناهج التفسير بأَصْلَيْه العقلي والنقلي، هذه الدروس الأساس في مصدرها هو «كتاب المناهج التفسيرية» للمحقق العلامة الشيخ جعفر السبحاني بالاضافة إلى ما استفدناه من «علوم القرآن عند المفسرين» نسأل المولى عزّ وجلّ أن يوفقنا وإياكم للوصول إلى فهم كتاب الله المجيد كما يريد الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام.

والحمد لله رب العالمين

جمعية القرآن الكريم

المقدمات التمهيدية للتفسير

١ – حاجتنا إلى تفسير القرآن وتأويله.

٢ – مؤهلات المفسّر وآدابه.

٣ – القرآن قطعي الدلالة.

٤ – التفسير بالرأي.

الدرس الأول

تعريف التفسير

حاجتنا إلى تفسير القرآن وتأويله

لغة: التفسير مأخوذ من الفسْر وهو الإبانة والكشف، قال في لسان العرب في مادة (ف س ر): الفسر البيان فسر الشيء يفْسِره بكسر السين، ويفسُره بالضم فَسْراً، وفسّره أبانه، ثم قال: «**الفسر**»: «**كشف المغطى، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل**».

وقال الراغب: الفَسر والسَفر يتقارب معناهما كتقارب لفظيهما، لكنّ جعل الفَسْر لإظهار المعنى المعقول، كقوله سبحانه: ﴿**وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا**﴾[1] أي أحسن تبييناً، وجعل السّفر لإبراز الأعيان للأبصار، يقال: سفرتْ المرأة عن وجهها، وأسفر الصبح.

وأمّا في الاصطلاح فبما أنَّ التفسير علم كسائر العلوم فله تعريفه وموضوعه ومسائله وغايته.

أمّا التعريف فقد عرف بوجوه:

١. هو العلم الباحث عن تبيين دلالات الآيات القرآنية على مراد الله سبحانه.

وبعبارة أُخرى: إزالة الخفاء عن دلالة الآية على المعنى المقصود.

وهناك تعريفات أُخرى نشير إلى بعضها:

فقد عرّفه الزركشي بقوله: علم يعرف به فهم كتاب الله تعالى المنزل على نبيه محمّد ﷺ وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه[2].

(١) سورة الفرقان، الآية: ٣٣.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ١/٣٣.

قال الطبرسي قدس سره في ذكر التفسير والتأويل والمعنى: «**التفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل، والتأويل: رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر والتفسير والبيان، وقال أبو العباس المبرد التفسير والتأويل والمعنى واحد، وقيل التفسير كشف المغطى، والتأويل انتهاء الشيء ومصيره وما يؤول إليه أمره، والمعنى مأخوذ من قولهم: عنيت فلانا أي قصدته، فكان المراد من قولهم عنى به كذا، وقيل: هو من قولهم: عنيت بهذا الأمر أي تكلفته**»[1].

أمّا موضوعه: فهو كلام الله سبحانه المسمّى بالقرآن الكريم.

أما مسائله: فهي ما يستظهر من الآيات بما أنَّه مراده سبحانه.

وأمّا الغرض منه: فهو الوقوف على مراده سبحانه في مجالَي المعارف والمغازي والقصص واستنباط الأحكام الشرعية منه.

ثمّ إنّ الرأي السائد بين المسلمين أنَّ القرآن غير غني عن التفسير، إمّا من جانب نفسه كَتَبْيين معنى آية بأُختها، أو تبيينه بكلام من نزل على قلبه.

١. **يقول سبحانه:** ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيكَ الذِّكرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُم يَتَفَكَّرُونَ﴾[2] ولم يقل «**لتقرأ**» بل قال: ﴿**لِتُبَيِّنَ**﴾ إشارة إلى أنّ القرآن يحتاج وراء قراءة النبي إلى تبيين، فلو لم نقل أنَّ جميع الآيات بحاجة إليه، فلا أقل أنّ هناك قسماً منها يحتاج إليه بأحد الطريقين: تفسير الآية بالآية، أو تفسيرها بكلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

والذي يكشف عن حاجة القرآن إلى التبيين أُمور، نذكر منها ما يلي:

٢. إنَّ أسباب النزول للآيات القرآنية كقرائن حالية، اعتمد المتكلم عليها في إلقاء كلامه بحيث لو قطع النظر عنها، واقتصر على نفس الآية، لصارت الآية مجملة غير مفهومة، ولو ضمّت إليها تكون واضحة شأن كل قرينة منفصلة عن الكلام،

(١) علوم القرآن عند المفسرين: ج ٨٥ / ص ٢٠٩.
(٢) سورة النحل، الآية: ٤٤.

مثلاً لاحظ قوله سبحانه: ﴿وَعَلى الثّلاثَة الّذينَ خُلّفُوا حَتّى إذا ضاقَتْ عَلَيهمُ الأرْضُ بِما رَحُبَتْ وضاقَتْ عَلَيهِمْ أنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أنْ لا مَلجَأ مِنَ اللهِ إلاّ إليهِ ثُمَّ تابَ عَلَيهِم لِيَتُوبوا إنّ اللهَ هُوَ التَّوابُ الرَّحيم﴾[1] ترى أنَّ الآية تحكي عن أشخاص ثلاثة تخلّفوا عن الجهاد حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فعند ذلك يسأل الإنسان نفسه، مَن هم هؤلاء الثلاثة؟ ولماذا تخلّفوا؟ ولأيّ سبب ضاقت الأرض والأنفس عليهم؟

وما المراد من هذا الضيق؟ ثم ماذا حدث حتى انقلبوا وظنّوا أنّه لا ملجأ من الله إلاّ إليه؟ إلى غير ذلك من الأسئلة المتراكمة حول الآية، لكن بالرجوع إلى أسباب النزول تتخذ الآية لنفسها معنى واضحاً لا إبهام فيه.

وهذا هو دور أسباب النزول في جميع الآيات، فإنّه يُلقي ضوءاً على الآية ويوضح إبهامها، فلا غنىً للمفسِّر من الرجوع إلى أسباب النزول قبل تفسير الآية.

٣. إنَّ القرآن مشتملٌ على مجملات كالصلاة والصوم والحجّ لايفهم منها إلاّ معاني مجملة، غير أنَّ السُّنَّة كافلة لشرحها، فلاغنىً للمفسّر من الرجوع إليها في تفسير المجملات.

٤. إنَّ القرآن يشتمل على آيات متشابهة غير واضحة المراد في بدء النظر، وربما يكون المتبادر منها في بدء الأمر، غير ما أراد الله سبحانه، وإنّما يعلم المراد بإرجاعها إلى المحكمات حتى تفسّر بها، غير أنّ الذين في قلوبهم زيغ يتبعون الظهور البدائي للآية لإيجاد الفتنة وتشويش الأذهان ويجعلونه تأويل الآية أي مرجعها ومآلها، وأمّا الراسخون في العلم فيتّبعون مراده سبحانه بعدما يظهر من سائر الآيات التي هي أُم الكتاب.

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٨.

٥ . قال سبحانه: ﴿**منهُ آياتٌ مُحكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الكتابِ وأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ فأمّا الّذِينَ في قُلوبِهِمْ زَيغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنهُ ابتِغاءَ الفِتنَةِ وابتِغاءَ تأويلِه**﴾[١].

وعلى هذا لا غنىً من تفسير المتشابهات بفضل المحكمات، وهذا يرجع إلى تفسير القرآن نفسه بنفسه، والآية بأُختها.

٦ . إنَّ القرآن المجيد نزل نجوماً، لغاية تثبيت قلب النبي طيلة عهد الرسالة.

قال سبحانه: ﴿**وقالَ الّذِينَ كَفَرُوا لَولا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرآنُ جُملَةً واحِدةً كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَرَتَّلناهُ تَرتيلا**﴾[٢]، فمقتضى النزول التدريجي تفرق الآيات الباحثة عن موضوع واحد في سور مختلفة، ومن المعلوم أنَّ القضاء في موضوع واحد يتوقف على جمع الآيات المربوطة به في مكان واحد حتى يستنطق بعضها ببعض، ويستوضح بعضها ببعض آخر، وهذا ما يشير إليه الحديث النبوي المعروف: «**القرآن يفسّر بعضه بعضاً**»[٣].

وقال الإمام علي عليه السلام: «**كتاب الله تبصرون به، وتنطقون وتسمعون به، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض، ولا يختلف في الله ولا يخالف بصاحبه عن الله**»[٤].

وفي كلامه عليه السلام ما يعرب عن كون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو المفسر الأوّل للقرآن الكريم يقول: «خلّف فيكم أي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كتابَ رَبِّكم، مبيّناً حلالَه وحرامَه، وفرائضَه، وفضائلَه وناسخَه ومنسوخَه، ورُخَصَه وَعَزائمَه، وخاصَّه وعامَّه، وعِبَره وأمثالَه، ومُرسَلَه وَمَحْدودَه، ومُحْكَمه ومتشابهه، مفسِّراً مجمله، ومبيِّناً غوامضه»[٥].

وهذه الوجوه ونظائرها تثبت أنّ القرآن لايستغني عن التفسير.

(١) آل عمران: ٧.
(٢) الفرقان: ٣٢.
(٣) يوجد مضمون هذا الحديث في كلام الإمام علي عليه السلام التالي.
(٤) نهج البلاغة / الخطبة رقم ١٣٣.
(٥) نهج البلاغة: الخطبة رقم ١.

سؤال وإجابة:

أمّا السؤال: فربما يتصور أنَّ حاجة القرآن إلى التفسير ينافي قوله سبحانه: ﴿**وَلَقَد يَسَّرنا القرآنَ لِلذِّكرِ فَهَل مِنْ مُدَّكِر**﴾[١].

ونظيره قوله سبحانه في موارد مختلفة: ﴿**بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ**﴾[٢] فإنَّ تَوصيف القرآن باليسر وَكَونِه بِلسان عَرَبي مُبين يهدفان إلى غناه عن أيّ إيضاح وتبيين ؟

وأمّا الإجابة: فإنَّ وصفه باليسر، أو بأنّه نزل بلغة عربية واضحة يهدفان إلى أمر آخر، وهو أنَّ القرآن ليس ككلمات الكهنة المركَّبة من الأسجاع والكلمات الغريبة، ولا من قبيل الأحاجي والألغاز، وإنّما هو كتاب سهل واضح، من أراد فهمه، فالطريق مفتوح أمامه. وهذا نظير ما إذا أراد رجل وصف كتاب أُلّف في علم الرياضيات أو في الفيزياء أو الكيمياء فيقول: أُلّف الكتاب بلغة واضحة وتعابير سهلة، فلا يهدف قوله هذا إلى استغناء الطالب عن المعلِّم ليوضح له المطالب ويفسر له القواعد.

ولأجل ذلك قام المسلمون بعد عهد الرسالة بتدوين ما أُثر عن النبي أو الصحابة والتابعين أو أئمة أهل البيت عليهم السلام في مجال كشف المراد وتبيين الآيات، ولم تكن الآيات المتقدّمة رادعة لهم عن القيام بهذا الجهد الكبير. نعم إنَّ المفسّرين في الأجيال المتلاحقة ارتوُوا من ذلك المنهل العذب (القرآن) ولكلٍّ طائفة منهم منهاج في الاستفادة من القرآن والاستضاءة بأنواره، فالمنهل واحد والمنهاج مختلف: ﴿**لِكُلٍّ جَعَلنا مِنكم شِرعةً وَمِنهاجاً**﴾[٣].

القرآن وآفاقه اللامتناهية

يتميّز القرآن الكريم عن غيره من الكتب السماوية بآفاقه اللامتناهية كما عبّر عن ذلك خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم وقال: «**ظاهره أنيق، وباطنه عميق، له تخوم، وعلى تخومه**

---

(١) القمر: ١٧.

(٢) الشعراء: ١٩٥.

(٣) المائدة: ٤٨.

تخوم، لا تحصى عجائبه، ولا تبلى غرائبه»[1].

وقد عبّر عنه سيد الأوصياء عليه السلام، بقوله: «**وسراجاً لا يخبو توقّده، وبحراً لا يدرك قعره ... إلى أن قال: . وبحر لا ينزفه المستنزِفون، وعيون لا ينضبها الماتحون، ومناهل لا يغيضها الواردون**».[2] ولأجل ذلك صار القرآن الكريم، النسخة الثانية لعالم الطبيعة الذي لا يزيد البحث فيه والكشف عن حقائقه إلاّ معرفة أنَّ الإنسان لا يزال في الخطوات الأُولى من التوصّل إلى مكامنه الخفية وأغواره البعيدة.

والمترقّب من الكتاب العزيز النازل من عند الله الجليل، هو ذاك وهو كلام من لا تتصور لوجوده وصفاته نهاية، فيناسب أن يكون فعله مشابهاً لوصفه، ووصفه حاكياً عن ذاته، وبالتالي يكون القرآن مرجع الأجيال وملجأ البشرية في جميع العصور.

ولَمَّا ارتحل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، والتحق بالرفيق الأعلى، وقف المسلمون على أنّ فهم القرآن وإفهامه يتوقف على تدوين علوم تسهل التعرّف على القرآن الكريم، ولأجل ذلك قاموا بعملين ضخمين في مجال القرآن:

الأوّل: تأسيس علوم الصرف والنحو واللغة والاشتقاق وما شابهها، لتسهيل التعرّف على مفاهيم ومعاني القرآن الكريم أوّلاً، والسنّة النبوية ثانياً، وإن كانت تقع في طريق أهداف أُخرى أيضاً لكن الغاية القصوى من القيام بتأسيسها وتدوينها، هو فهم القرآن وإفهامه.

الثاني: وضع تفاسير لمختلف الأجيال حسب الأذواق المختلفة لاستجلاء مداليله، ومن هنا لا نجد في التاريخ مثيلاً للقرآن الكريم من حيث شدّة اهتمام أتباعه به، وحرصهم على ضبطه، وقراءته، وتجويده، وتفسيره، وتبيينه.

وقد ضبط تاريخ التفسير أسماء ما ينوف على ألفين ومائتي تفسير وعند المقايسة يختص ربع هذا العدد بالشيعة الإمامية.

(١) الكافي: ٢/٣٨.
(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٨

هذا ما توصّل إلى إحصائه المحقّقون من طريق الفهارس ومراجعة المكتبات عدا ما فاتهم ذكره مما ضاع في الحوادث المؤسفة كالحرق والغرق والغارة.

وعلى ضوء هذا يصعب جداً الإحاطة بعدد التفاسير وأسمائها وخصوصياتها طيلة أربعة عشر قرناً حسب اختلاف بيئاتهم وقابلياتهم وأذواقهم.

خلاصة

التفسير لغة: هو الإبانة والكشف.

واصطلاحاً: التفسير إزالة الخفاء عن دلالة الآية على المعنى المقصود.

وأما موضوع التفسير فهو القرآن الكريم، ومسائله فهي ما يستظهر من الآيات، وأما الغرض منه فهو الوقوف على مراده سبحانه في مجال المعارف والمغازي والقصص واستنباط الأحكام الشرعية منه.

- **أمور تكشف عن حاجة القرآن إلى التبيين هي:**

١. أسباب النزول.

٢. اشتمال القرآن على المعاني المجملة.

٣. اشتماله على آيات متشابهة.

٤. نزوله نجوماً على قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد أشارت الأحاديث إلى هذه الحاجة فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**القرآن يفسر بعضه بعضاً**».

وفي كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام ما يعرف عن كون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو المفسر الأول للقرآن الكريم يقول: «**خلّف فيكم أي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كتاب ربكم، مبيّناً حلاله**

وحرامه، وفرائضه، وفضائله وناسخه ومنسوخه، ورُخصه وعزائمه، وخاصّه وعامّه، وعِبَره وأمثاله، ومرسِله ومحدوده، ومحكمه ومتشابهه مفسّراً مجمله، ومبيّناً غوامضه».

هذه الوجوه ونظائرها تثبت الحاجة للتفسير.

الدرس الثاني

شروط التفسير والمفسر وآدابه

فتح علماء التفسير باباً باسم «**معرفة شروط المفسِّر وآدابه**» وذكروا كلّ ما يحتاج إليه المفسر في تفسير كلام الله العزيز فمنهم من اختصر كالراغب الأصفهاني في «**مقدمة جامع التفاسير**»، ومنهم من أسهب كالزركشي في كتابه «**البرهان في علوم القرآن**» و السيوطي في «**الإتقان**»، ونحن نسلك طريقاً وسطاً في هذا المضمار. وبما أنَّ ما ذكره الراغب أساس لكل من جاء بعده، نأتي هنا بملخص ما ذكره، ثمّ ندخل في صلب الموضوع، فنقول:

ذكر الراغب الأصفهاني في «**مقدّمة جامع التفاسير**» الشروط التالية:

الأوّل: معرفة الألفاظ، وهو علم اللغة.

الثاني: مناسبة بعض الألفاظ إلى بعض، وهو الاشتقاق.

الثالث: معرفة أحكام ما يعرض الألفاظ من الأبنية والتعاريف والإعراب، وهو النحو.

الرابع: ما يتعلّق بذات التنزيل، وهو معرفة القراءات.

الخامس: ما يتعلّق بالأسباب التي نزلت عندها الآيات، وشرح الأقاصيص التي تنطوي عليها السور من ذكر الأنبياء عليهم السلام والقرون الماضية، وهو علم الآثار والأخبار.

السادس: ذكر السنن المنقولة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعمّن شهد الوحي ممن اتّفقوا عليه وما اختلفوا فيه ممّا هو بيان لمجمل أو تفسير لمبهم، المنبأ عنه بقوله تعالى: ﴿**وَأَنْزَلْنا**

إِلَيْكَ الذِّكر لِتُبَيِّنَ لِلنّاس ما نزل إِليهم﴾[1] وبقوله تعالى: **﴿أُولئِكَ الَّذِينَ هَدى اللهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِه﴾** [2]، وذلك علم السنن.

السابع: معرفة الناسخ والمنسوخ، والعموم والخصوص، والإجماع والاختلاف، والمجمل والمفصّل، والقياسات الشرعية، والمواضع التي يصحّ فيها القياس والتي لا يصحّ، وهو علم أُصول الفقه.

الثامن: أحكام الدين وآدابه، وآداب السياسات الثلاث التي هي سياسة النفس والأقارب والرعية مع التمسك بالعدالة فيها، وهو علم الفقه والزهد.

التاسع: معرفة الأدلّة العقلية والبراهين الحقيقية والتقسيم والتحديد، والفرق بين المعقولات والمظنونات، وغير ذلك، وهو علم الكلام.

العاشر: علم الموهبة، وذلك علم يورثه الله مَنْ عَمِلَ بما علم، وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «قالت الحكمة: من أرادني فليعمل بأحسن ما علم» ثمّ تلا: **﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَولَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَه﴾**[3].

وما روي عنه حين سئل: هل عندك علم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يقع إلى غيرك ؟ قال: لا، إلاّ كتاب الله و ما في صحيفتي [4]، وفهم يؤتيه الله من يشاء وهذا هو التذكّر الذي رجّانا تعالى إدراكه بفعل الصالحات، حيث قال: **﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذي القُربى﴾**[5] إلى قوله: **﴿لعلّكُمْ تَذَكَّرُون﴾**، وهو الهداية المزيدة للمهتدي في قوله: **﴿وَالَّذينَ اهتَدُوا زادَهُمْ هُدى﴾**[6] وهو الطيب من القول المذكور في قوله: **﴿وَهُدُوا إِلى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَولِ وَهُدُوا إِلى صِراطِ الحَمِيد﴾**[7]. فجملة العلوم التي هي كالآلة للمفسر،

(١) سورة النحل، الآية: ٤٤.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٠.
(٣) سورة الزمر، الآية: ١٨.
(٤) الثابت عندنا غير هذا، وكتاب علي عليه السلام بإملاء الرسول صلى الله عليه وآله المخزون عند الأئمة الطاهرة عليهم السلام، لا يلائمه.
(٥) سورة النحل، الآية: ٩٠.
(٦) سورة محمد، الآية: ١٧.
(٧) سورة الحج، الآية: ٢٤.

ولا تتم صناعة إلاّ بها، هي هذه العشرة: علم اللغة، والاشتقاق، والنحو، والقراءات، والسير، والحديث، وأُصول الفقه، وعلم الأحكام، وعلم الكلام، وعلم الموهبة. فمن تكاملت فيه هذه العشرة واستعملها خرج عن كونه مفسراً للقرآن برأيه.[1]

هذا نصّ كلام الراغب الأصفهاني، وقد ذكر أُمّهات الشرائط التي ينبغي على المفسر التحلّي بها، وبيت القصيد في كلامه هو ما ذكره في الشرط العاشر وهو علم الموهبة.

والحقّ أنّ تفسير القرآن الكريم يحتاج إلى ذوق خاص على حدّ يخالط القرآن روحه وقلبه ويتجرد في تفسيره عن كلّ نزعة وتحيز، وهو عزيز المنال والوجود بين المفسرين.

ولكن الذي يؤخذ على الراغب الأصفهاني هو أنَّ بعض ما عدّه من شروط التفسير يعدّ من كمال علم التفسير، كالعلم بأُصول الفقه وعلم الكلام، فإنَّ تفسير الكتاب العزيز لا يتوقف على ذينك العلمين على ما فيهما من المباحث التي لاتمتُّ إلى الكتاب بصلة. نعم معرفة الناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيد وكيفية العلاج، أو معرفة العموم والخصوص وكيفية التخصيص، والإجماع والاختلاف وأُسلوب الجمع بينهما، والمجمل والمبيّن، التي هي من مباحث علم الأُصول ممّا يتوقف عليه تفسير الكتاب، كما أنّ الآيات التي تتضمن المعارف الغيبية كالاستدلال على توحيد ذاته وفعله وعبادته لا تفسر إلاّ من خلال الوقوف على ما فيها من المباحث العقلية التي حقّقها علماء الكلام والعقائد، وهذا واضح لمن له أدنى إلمام بالقرآن.

وما ربما يقال من أنّ السلف الصالح من الصحابة والتابعين كانوا مفسّرين للقرآن على الرغم من عدم اطّلاعهم على أغلب هذه المباحث، غير تام ؛ فإنَّ المعلم الأوّل ـ بعد النبيّ ـ للتفسير و المصدر الأوّل للعلوم الإسلامية هو الإمام علي بن أبي طالب

(١) مقدمة جامع التفاسير: ٩٤ ـ ٩٦، نشر دار الدعوة.

عليه السلام، وقد روي عنه في علم الكلام ما جعله مرجعاً في ذينك العلمين حتّى فيما يرجع إلى أُصول الفقه من معرفة الناسخ والمنسوخ والعام والخاص، قال عليه السلام:

«إنَّ في أيدي الناس حقّاً وباطلاً، وصدقاً وكذباً، وناسخاً ومنسوخاً، وعاماً وخاصاً، ومحكماً ومتشابهاً، وحفظاً ووهماً، ولقد كُذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على عهده حتى قام خطيباً وقال: «من كذب عليَّ متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار».

إلى أن قال بعد تقسيم الناس إلى أربعة أقسام:

وآخر رابع لم يكذب على الله، ولا على رسوله، مبغض للكذب خوفاً من الله، وتعظيماً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يهم، بل حفظ ما سمع على وجهه، فجاء به على ما سمعه، لم يزد فيه ولم ينقص منه، فهو حفظ الناسخ فعمل به، وحفظ المنسوخ فجنَّب عنه، وعرف الخاص والعام، والمحكم والمتشابه، فوضع كلّ شيء موضعه».[1]

هذا بعض كلامه عليه السلام حول ما يمت إلى أُصول الفقه، وأمّا كلامه فيما له صلة بالعقائد والمباحث الكلامية فحدث عنه ولا حرج، فهذه خُطَبه عليه السلام فيها وقد أخذ عنه علماء الكلام ما أخذوا.[2]

وأمّا من لا خبرة له بهذين العِلْمَين من الأقدمين فقد اقتصروا بالتفسير بالمأثور وتركوا البحث فيما لم يرد فيه نص، ولذا عاد تفسيرهم تفسيراً نقلياً محضاً، وسيوافيك البحث في هذا النوع من التفسير.

إلى هنا تمّ ما أردنا نقله من كلام الراغب، وبما أنَّ لجلال الدين السيوطي كلاماً في شروط التفسير نذكره لما فيه من اللطافة وإن كان ذيله لا يخلو من الشذوذ، قال:

قال العلماء: من أراد تفسير الكتاب العزيز، طلبه أوّلاً من القرآن، فما أُجملَ منه في مكان، فقد فُسّر في موضع آخر، وما اختصر في مكان، فقد بُسط في موضع آخر منه.

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢١٠.
(٢) لاحظ كتاب بحوث في الملل والنحل: ٣ / ١٨٧ ـ ١٩٢.

وقد ألّف ابن الجوزي كتاباً فيما أجمل في القرآن في موضع وفسّر في موضع آخر منه، وأشرت إلى أمثلة منه في نوع المجمل.

فإن أعياه ذلك طلبه من السنّة، فإنّها شارحة للقرآن وموضحة له، وقد قال الشافعي: كلّ ما حكم به رسول الله ﷺ فهو ممّا فهمه من القرآن، قال تعالى: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الكِتابَ بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ بِما أَراكَ اللهُ**﴾ [1] في آيات أُخر وقال ﷺ: «**ألا إنّي أُوتيت القرآن ومثله معه**»، يعني السنّة.

فإن لم يجده في السنّة رجع إلى أقوال الصحابة، فإنّهم أدرى بذلك، لما شاهدوه من القرائن والأحوال عند نزوله، ولما اختصوا به من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح.[2]

فما ألطف كلامه في المقطعين الأوّلين دون المقطع الثالث فقد بخس فيه حقوق أئمّة أهل البيت عليهم السلام، لأنّ السنَّة النبوية ليست منحصرة بما رواها الصحابة والتابعون، فإنَّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام عيبة علم النبي ووعاة سننه، فقد روُوا عن آبائهم عن علي أمير المؤمنين عليه السلام عن النبي ﷺ روايات في تفسير القرآن الكريم، كيف وهم أحد الثقلين اللّذين تركهما رسول الله وقال: «إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي».

ولعمر الله إنَّ الإعراض عن أحاديث أئمّة أهل البيت عليهم السلام لخسارة فادحة على الإسلام والمسلمين.

ثمّ إنّ الرجوع إلى أقوال الصحابة لا ينجع ما لم ترفع أقوالهم إلى النبي ﷺ، فمجرد أنّهم شاهدوا الوحي والتنزيل لا يثبت حجّية أقوالهم ما لم يسند إلى النبي ﷺ، والقول بحجّية قول الصحابي بمجرّد نقله وإن لم يسند قوله إلى النبي ﷺ قول فارغ عن الدليل، فإنّه سبحانه لم يبعث إلاّ نبيّاً واحداً لا أنبياء حسب عدد الصحابة إلاّ أن يرجع قولهم إلى قول النبي ﷺ.

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٥.
(٢) الإتقان في علوم القرآن: ٢ / ١١٩٧.

شروط التفسير والمفسر وآدابه

لا محيص للمفسر من تبنِّي علوم يتوقف عليها فهم الآية وتبيينها، وهذه الشروط تأتي تحت عناوين خاصة، مع تفاصيلها:

١ ـ معرفة قواعد اللغة العربية

إنّ القرآن الكريم نزل باللغة العربية، قال سبحانه: **﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾**(١) ومعرفة اللغة العربية فرع معرفة علم النحو والاشتقاق والصرف.

فبعلم النحو يميز الفاعل عن المفعول، والمفعول عن التمييز، إلى غير ذلك من القواعد التي يتوقف عليها فهم معرفة اللغة.

وأمّا الاشتقاق فهو الذي يُبين لنا مادة الكلمة وأصلها حتى نرجع في تبيين معناها إلى جذورها، وهذا أمر مهم زلّت فيه أقدام كثير من الباحثين، وهذا هو المستشرق «**فوجل**» مؤلف «**نجوم الفرقان في أطراف القرآن**» الذي جعله كالمعجم لألفاظ القرآن الكريم وطبع لأوّل مرة عام ١٨٤٢ م، فقد التبس عليه جذور الكلمات في موارد كثيرة، ذكر فهرسها محمد فؤاد عبد الباقي مؤلف «**المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**» في أوّل معجمه.

حيث زعم أنَّ قوله: **﴿وَقَرْنَ﴾** في قوله سبحانه مخاطباً لنساء النبيّ: **﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾**(٢) مأخوذ من قَرَن مع أنّه مأخوذ من «قرّ» فأين القَرْن من القرّ والاستقرار ؟! كما زعم أنَّ المرضى في قوله سبحانه: **﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى﴾**(٣) مأخوذ من رضي مع أنّه مأخوذ من مرض فأين الرضا من المرض ؟! و قس على ذلك غيره.

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١٩٣ ـ ١٩٥.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٩١.

وأمّا علم الصرف فبه يعرف الماضي عن المضارع وكلاهما عن الأمر والنهي إلى غير ذلك، وما ذكرنا من الشرط ليس تفسيراً لخصوص القرآن الكريم بل هو شرط لتفسير كلّ أثر عربي وصل إلينا.

٢ـ معاني المفردات

إنَّ الجملة تتركّب من مفردات عديدة يحصل من اجتماعها جملة مفيدة للمخاطب، فالعلم بالمفردات شرط لازم للتفسير، فلولا العلم بمعنى «الصعيد» كيف يمكن أن يُفسر قوله سبحانه: ﴿فتيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً﴾.[١]

وفي المقام أمر مهمّ، وهو أن يهتمّ المفسِّر بأُصول المعاني التي يشتق منها معان أُخرى، فإنَّ كلام العرب مشحون بالمجاز والكنايات، فربما يستعمل اللفظ لمناسبة خاصة في معنى قريب من المعنى الأوّل فيبدو للمبتدئ انّ المعنى الثاني هو المعنى الأصلي للكلمة يفسر بها الآية مع أنّها معنى فرعيّ اشتق منه لمناسبة من المناسبات.

وأفضل كتاب أُلّف في هذا الموضوع أي إرجاع المعاني المتفرعة إلى أُصولها، كتابان:

أ: «المقاييس» لأحمد بن فارس بن زكريا (المتوفّى عام ٣٩٥ هـ) و قد طبع في ستة أجزاء.

ب: «أساس البلاغة» لمحمود الزمخشري (المتوفّى عام ٥٣٨ هـ).

فبالمراجعة إلى ذينك المرجعين يعرف المفسِّر المعنى الأصلي الذي يجب أن يفسر به الكلمة في القرآن الكريم ما لم تقم القرينة على خلافه، ولنأت بمثال:

قال سبحانه في قصة آدم: ﴿وَعَصى آدمُ رَبَّهُ فَغَوى﴾[٢] فإنَّ كثيراً من المتعاطين لعلم التفسير يتخذون الكلمتين ذريعة لعدم عصمة آدم بذريعة أنَّ لفظة «عصى» عبارة

(١) سورة المائدة، الآية: ٦.
(٢) سورة طه، الآية: ١٢١.

عن المعصية المصطلحة، و «**الغواية**» ترادف الضلالة، لكن الرجوع إلى أُصول المعاني يعطي انطباعاً غير ذلك، فلا لفظة «**عصى**» ترادف العصيان المصطلح ولا الغواية ترادف الضلالة.

أمّا العصيان فهو بمعنى خلاف الطاعة.

يقول ابن منظور: العصيان خلاف الطاعة، والعاصي الفصيل إذا لم يتبع أمه.[1]

فمن خالف أمر مولاه، أو نصح الناصح، يقال: عصى، وعلى ذلك فليس كلمة «**عصى**» إلاّ موضوعة لمطلق المخالفة، سواء أكانت معصية كما إذا خالف أمر مولاه، أو لم تكن كما إذا خالف نصح الناصح.

ولا يمكن أن يستدل بإطلاق اللفظ على أنّ المورد من قبيل مخالفة أمر المولى.

وأمّا الغيّ فهو ـ كما في لسان العرب ـ يستعمل في الخيبة والفساد والضلال [2]، ومن الواضح أنَّ هذه المعاني أعمّ من المعصية الاصطلاحية، ومن مخالفة نصح الناصح.

٣ ـ تفسير القرآن بالقرآن

إنّ القرآن الكريم يصف نفسه بأنّه تبيان لكلّ شيء و يقول: ﴿**وَنَزَّلنا عَلَيْكَ الكِتاب تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ**﴾[3] فهل يصحّ أن يكون مبيّناً لكلّ شيء ولا يكون تبياناً لنفسه إذا كان فيه إجمال؟

هذا من جانب، ومن جانب آخر أنَّ القرآن تناول موضوعات مهمّة في سور متعددة لغايات مختلفة، فربما يذكر الموضوع على وجه الإجمال في موضع ويفسره في موضع آخر، فما أجمله في مكان فقد فصّله في موضع آخر، وما اختصر في مكان فإنّه قد بسط في آخر، و بذلك يمكن رفع إجمال الآية الأُولى بالآية الثانية،

(١) لسان العرب: ١٤ / ٦٧.
(٢) المصدر السابق: ١٤ / ١٤٠.
(٣) سورة النحل، الآية: ٨٩.

كيف وقد وصفه سبحانه بقوله: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتشابهاً مَثَانِيَ﴾[1] فإنَّ المراد من المتشابه هو تشابه معاني الآيات بعضها مع بعض وتسانخها وتكرر مضامينها بقرينة قوله «مثاني»، و بذلك يظهر أنَّ رفع إجمال الآية بنظيرتها شيء دعا إليه القرآن الكريم لكن بعد الإمعان والدقة فيه. ولنضرب لذلك مثالاً يقول سبحانه في وصف تعذيب قوم لوط: ﴿وَأَمْطرنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِين﴾[2] ربما يتصوّر القارئ أنَّهم عذبوا بالمطر الغزير الذي يستعقب السيل الجارف فغرقوا فيه، ولكن في آية أُخرى أتى سبحانه ما يرفع إبهام الآية فقال: ﴿وَأَمطرنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيل﴾[3] فصرّح بأنّهم أُمطروا مطر الحجارة فهلكوا بها، كما أهلك أصحاب الفيل بها كما قال سبحانه: ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجارَة مِنْ سِجِّيل﴾[4] ولنأت بمثال آخر:

يقول سبحانه في حقّ اليهود: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَل مِنَ الْغَمام وَالمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُور﴾[5] فظاهر الآية أنَّهم كانوا ينتظرون مجيء اللّه تبارك وتعالى في ظلل من الغمام ولكن الآية الأُخرى ترفع الإبهام وأنَّ المراد مجيء أمره سبحانه يقول: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُون﴾.[6]

٤ـ الحفاظ على سياق الآية

إنّ من أهمّ وظائف المفسر الحفاظ على سياق الآيات الواردة في موضوع واحد؛ فتقطيع الآية بعضها عن بعض، والنظر إلى الجزء دون الكل لا يعطي للآية حقّها في التفسير، فالآيات الواردة في موضوع واحد على وجه التسلسل كباقة من الزهور تكمن

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٣.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٧٣.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٧٤.
(٤) سورة الفيل، الآية: ٤.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢١٠.
(٦) سورة النحل، الآية: ٣٣.

نظارتها وجمالها في كونها مجموعة واحدة، وأمّا النظر التجزيئي إليها فيسلب ذلك الجمال والنظارة منها، حتى أنّ بعض الملاحدة دخل من ذلك الباب فحرّف الآية من مكانها وفسّرها بغير واقعها، ولنأت بمثال: إنّه سبحانه تبارك و تعالى يخاطب بني آدم بخطابات ثلاثة أو أكثر في بدء الخلقة، أي بعد هبوط آدم إلى الأرض، فخاطب أولاده في تلك الفترة بالخطابات التالية، وقال:

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُواري سَوْءاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (١).

﴿يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْءاتِهِما إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾. (٢)

﴿يا بَنِي آدَمَ إِمّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي فَمَنِ اتَّقى وَأَصْلَحَ فَلا خَوفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣).

فقد احتجّ من ينكر الخاتمية بالآية الأخيرة على أنَّه سبحانه يرسل الرسول بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله وسلم بشهادة هذه الآية التي نزلت على النبي، أعني: «**يا بني آدم إمّا يأتينّكم رسل منكم**». ...

والمسكين فسّر القرآن بالرأي وبرأي مسبق، حيث فَصَلَ هذه الآية عمّا تقدّمها من الآيات التي تحكي خطاب الله سبحانه في بدء الخليقة وانّه سبحانه في تلك الفترة خاطب بني آدم بهذه الآية، فلو كان النبي يتلو هذه الآية، فإنّما يحكي خطاب الله سبحانه في ذلك الأوان لا في عصر رسالته وحياته، ويكفي في ذلك مراجعة المجموعة التي هذه الآية جزء منها في سورة الأعراف من الآية ١٩ إلى الآية ٣٦،

(١) سورة الأعراف، الآية : ٢٦.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.
(٣) سورة الأعراف، الآية : ٣٥.

فالجميع بسياق واحد ونظم فارد يحكي خطاب الله في بدء الخليقة لا خطابه سبحانه في عهد الرسول، وهذا ما دعانا إلى التركيز بأنَّ حفظ السياق أصل من أُصول التفسير.

وما ذكرنا من لزوم الحفاظ على سياق الآيات لا يعني أنَّ القرآن الكريم كتاب بشري يأخذ بالبحث في الموضوع فإذا فرغ عنه يبتدئ بموضوع آخر دائماً.

وإنّما المراد أنَّ الحفاظ على سياق الآيات إذا كان رافعاً للإبهام وكاشفاً عن المراد لا محيص للمفسِّر من الرجوع إليه، ومع ذلك فإنَّ القرآن الكريم ليس كتاباً بشرياً ربما يطرح في ثنايا موضوع واحد موضوعاً آخر له صلة بالموضوع الأصلي ثمّ يرجع إلى الموضوع الأوّل، وإليك شاهدين:

إنّ القرآن يبحث في سورة البقرة عن أحكام النساء، مثل المحيض والعدّة والإيلاء وأقسام الطلاق من الآية ٢٢٢ إلى ٢٤٠، ومع ذلك فقد طرح موضوع الصلاة في ثنايا هذه الآيات، يعني من آية ٢٣٧ إلى ٢٣٨، ثمّ أخذ بالبحث في الموضوع السابق، وإليك صورة إجمالية ممّا ذكرنا، يقول سبحانه:

﴿وَإِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْواجَهُنَّ إِذا تَراضَوْا بَيْنَهُمْ بِالمَعْرُوفِ﴾[1].

ويستمر في البحث في الموضوع بشقوقه المختلفة ويقول: **﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾**...

وقبل أن يُنهي الكلام في الموضوع شرع بالأمر بالصلاة والحفاظ عليها وبالخصوص الصلاة الوسطى ويقول:

﴿حافِظُوا عَلى الصَّلَواتِ وَالصَّلاةِ الوُسْطى وَقُومُوا لله قانِتِين﴾[2].

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٨.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجالاً أَوْ رُكباناً فَإِذا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَما عَلَّمَكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾[1].

ترى أنّه انتقل من الموضوع الأوّل إلى موضوع آخر، وهو الحفاظ على الصلوات وتعليم كيفية صلاة الخوف، ثمّ بعد ذلك نرى أنّه رجع إلى الموضوع الأوّل وقال:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْواجاً وَصِيَّةً لأَزْواجِهِمْ مَتاعاً إِلى الحَوْلِ﴾.

وأمّا ما هو الحافز إلى بيان حكم الصلاة، قبل إنهاء أحكام المرأة فهو موكول إلى علم التفسير.

نموذج آخر

أخذ الوحي في تبيين مكانة نساء النبي ﷺ والمهمات الثقيلة الملقاة على عاتقهن، وابتدأ به في سورة الأحزاب من الآية ٢٨ وختمها بالآية ٣٥، ومع ذلك طرح في ثنايا هذا الموضوع موضوعاً آخر باسم طهارة أهل البيت من الرجس.

يقول سبحانه:

﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الحَياةَ الدُّنيا وَزِينَتَها﴾...

ويقول:

﴿وَقَرْنَ في بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجاهِلِيةِ الأُولى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَه﴾[2].

وقبل أن يُنهي البحث حول أزواج النبي حتى قبل أن يكمل تلك الآية، أخذ بالبحث حول أهل البيت على نحو يكون صريحاً أنَّ المراد منهم غير أزواج النبي وقال: ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذهِبَ عَنْكُمُ الرِّجسَ أَهْلَ البَيتِ وَيُطهِّرَكُمْ تَطهِيراً﴾.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٩.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢٨.

ثمّ رجع إلى الموضوع الأوّل و قال:

﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ﴾.

وأمّا الدليل على أنّه لا صلة لآية التطهير بنساء النبي هو لفظ الآية، أي تذكير ضمائرها «**عنكم**»، «**يطهركم**» وغير ذلك من القرائن المتصلة والمنفصلة.

على أنّ لحن الآيات في نساء النبي هو لحن التنديد والتخويف بخلاف هذه الآية فإنَّ لحنها لحن التمجيد والثناء.

فأين قوله سبحانه: **﴿يَا نِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْت منكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾** من قوله سبحانه: **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾**؟!

وأمّا الصلة بين الموضوعين فإليك بيانه:

إنّه سبحانه خاطب نساء النبي بالخطابات التالية، وقال:

١. **﴿يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَة مُبَيِّنَة يُضاعَفْ لَها الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ﴾**

٢. **﴿يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَد مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾**

٣. **﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الأُولى﴾**

فعند ذلك صحّ أن ينتقل إلى الكلام عن أهل البيت الذين أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، وذلك لوجهين:

١. تعريفهنّ على جماعة بلغوا في الورع والتقوى الذروةَ العليا، وفي الطهارة عن الرذائل والمساوئ القمةَ. وبذلك استحقوا أن يكونوا أُسوة في الحياة وقدوة في مجال العمل، فيلزم عليهن أن يقتدينّ بهم ويستضيئنّ بضوئهم.

٢. التنبيه على أنّ حياتهنّ مقرونة بحياة أُمّة طاهرة من الرجس ومطهّرة من الدنس، ولهنّ معهم لحمة القرابة ووصلة الحسب، واللازم عليهنّ الحفاظ على شؤون هذه القرابة بالابتعاد عن المعاصي والمساوئ، والتحلّي بما يرضيه سبحانه، ولأجل

ذلك يقول سبحانه: ﴿يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾، وما هذا إلاّ لقرابتهنّ منه ﷺ وصلتهنّ بأهل بيته. وهي لا تنفك عن المسؤولية الخاصة، فالانتساب للنبي الأكرم ﷺ ولبيته الرفيع، سبب المسؤولية ومنشؤها، وفي ضوء هذين الوجهين صحّ أن يطرح طهارة أهل البيت في أثناء المحاورة مع نساء النبي والكلام حول شؤونهن.

ولقد قام محقّقو الإمامية ببيان مناسبة العدول في الآية، نأتي ببعض تحقيقاتهم، قال السيد القاضي التستري: لا يبعد أن يكون اختلاف آية التطهير مع ما قبلها على طريق الالتفات من الأزواج إلى النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام على معنى أنّ تأديب الأزواج وترغيبهن إلى الصلاح والسداد، من توابع إذهاب الرجس والدنس عن أهل البيت عليهم السلام [1].

٥ ـ الرجوع إلى الأحاديث الصحيحة وإجماع المسلمين

إنّ كثيراً من الآيات المتعرّضة لأحكام الأفعال والموضوعات مجملة ورد تفسيرها في السنّة القطعية وإجماع المسلمين وأحاديث أئمّة أهل البيت كالصلاة والزكاة والحجّ وغير ذلك ممّا لا محيص للمفسِّر من الرجوع إليها في رفع الإجمال وتبيين المبهم، وهو أمر واضح.

وهناك سبب ثان للرجوع إليه، وهو أنَّه ورد في القرآن مطلقات ولكن أُريد منها المقيد، كما ورد عموم أُريد منه الخصوص، وذلك وفقاً لتشريع القوانين في المجالس التشريعية، فإنّهم يذكرون المطلقات والعموم في فصل كما يذكرون قيودها ومخصصاتها في فصل آخر باسم الملحق، وقد حذا القرآن في تشريعه هذا الحذو فجاءت المطلقات والعموم في القرآن الكريم والمقيد والمخصص في نفس السنّة، ولنأت بمثال:

يقول سبحانه: ﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا﴾[2] وجاء في السنّة مخصصها، وانّه لا

(١) إحقاق الحق: ٢/٥٧٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧٥.

ربا بين الزوج والزوجة والولد والوالد، فقد رخص الإسلام الربا هنا.

قال الإمام الصادق عليه السلام: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**ليس بين الرجل وولده رباء، وليس بين السيد و عبده ربا**». [1]

وروى زرارة عن أبي جعفر عليه السلام: «**ليس بين الرجل وولده، وبينه و بين عبده، ولا بين أهله ربا، إنّما الربا فيما بينك و بين ما لا تملك**». [2]

ولعلّ قوله سبحانه: ﴿**وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**﴾[3] يوحي إلى هذا المعنى.

غير أنَّ المهم صحّة الأحاديث الواردة في تفسير القرآن الكريم، أمّا ما يرجع إلى السنن وتبيين الحلال والحرام بالتخصيص والتقييد فقد وردت فيه روايات صحاح وحسان، إنّما الكلام فيما يرجع إلى المعارف والعقائد والقصص والتاريخ فالحديث الصحيح في ذلك المورد في كتب (العامة) قليل جداً، يقول الميموني: سمعت أحمد بن حنبل يقول: ثلاث كتب ليس لها أُصول: المغازي، والملاحم، والتفسير. قال المحقّقون من أصحابه: مراده أنَّ الغالب أنّها ليس لها أسانيد صحاح متصلة. [4]

ومن عجيب الأمر أنَّه لم يرد عن طرق الصحابة والتابعين ما يرجع إلى تفسير ما ورد من الآيات حول العقائد والمعارف، وكأنّهم اكتفوا بقراءتها والمرور عليها كما عليه جملة من السلفيين.

إنّه من المعلوم أنَّ الإحاطة بمعاني الألفاظ والجمل لا يكفي في تفسير قوله سبحانه: ﴿**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى**﴾ [5]، حيث إنّه يثبت الرمي للرسول وفي الوقت نفسه ينفي عنه وهما متضادان.

(١) الوسائل: ١٢، الباب ٧ من أبواب الربا، الحديث ١ و ٣. وقد ذكر الإمام نكتة التشريع في كلامه.
(٢) الوسائل: ١٢، الباب ٧ من أبواب الربا، الحديث ١ و ٣. وقد ذكر الإمام نكتة التشريع في كلامه.
(٣) سورة الحشر، الآية: ٧.
(٤) البرهان في علوم القرآن: ٢/ ١٥٩.
(٥) سورة الانفال، الآية: ١٧.

كما أنَّه لا يكفي الإحاطة بالأدب العربي ومعاني المفردات فهم قوله سبحانه: ﴿**شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُولُوا العِلْمِ قائِماً بِالقِسْطِ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ الْعَزِيزُ الحَكِيم**﴾ [1]، حيث اتّحد الشاهد والمشهود ومع ذلك كيف يشهد على وحدانيته؟!

ففي هذه الآيات لا محيص للمفسِّر من أن يرجع إلى أحد الثقلين، أي بما أُثر عن أئمة أهل البيت، أو إلى العقل الصريح، وإلاّ تبقى الآية على إجمالها، ويكون تفسيرها المرور عليها، وبالتالي تصبح الآية ـ نعوذ بالله ـ لقلقة في اللسان.

النبي ﷺ هو المفسر الأول

إنَّ الرسول ﷺ حسب القرآن الكريم هو المفسِّر الأوّل، وأنَّه لا تقتصر وظيفته في القراءة والتلاوة، بل يتعيّن عليه بعد القراءة تبيان ما أجمل وتفسير ما أُبهم يقول سبحانه: ﴿**وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون**﴾[2].

ترى أنّه سبحانه يجعل غاية النزول بيان الرسول حقائق القرآن للناس مضافاً إلى أنّه سبحانه يشير في بعض الآيات إلى أنّ عليه وراء البيان، القراءة والجمع، يقول: ﴿**لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَينا جَمْعَهُ وَقُرآنَهُ * فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَينا بَيانَهُ**﴾[3].

فالآية ترشد إلى الوظائف الثلاث: (القراءة، والجمع، والبيان) التي على عاتق النبي بأمر من الله سبحانه.

أمّا التلاوة يقول سبحانه: ﴿هُوَ الَّذي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ﴾. [4]

وأمّا الجمع فالحقّ أنَّه قد جمع القرآن في حياته ولم يترك القرآن متشتتاً هنا وهناك.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨.
(٢) سورة النحل، الآية: ٤٤.
(٣) سورة القيامة، الآيات: ١٦ ـ ١٩.
(٤) سورة الجمعة، الآية: ٢.

وأمّا البيان فقد كان يبيّن آيات الذكر الحكيم بالتدريج؛ قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدّثنا الذين كانوا يقرأون القرآن كعثمان بن عفان، و عبد الله بن مسعود وغيرهما أنّهما كانوا إذا تعلّموا من النبي عشر آيات، لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً، ولهذا كانوا يبقون مدّة في حفظ السورة.[١]

لكنَّ جميع ما ورد عن النبي من التفسير ـ غير ما ورد من أسباب النزول ـ لا يتجاوز المِئَتَيْن وعشرين حديثاً تقريباً، وقد أتعب جلال الدين السيوطي نفسه فجمعها من مطاوي الكتب في آخر كتابه «الإتقان» فرتّبها على ترتيب السور من الفاتحة إلى الناس.[٢]

ومن المعلوم أنَّ هذا المقدار لا يفي بتفسير القرآن الكريم ولا يمكن لنا التقوّل بأنّه ﷺ تقاعس عن مهمته، وليس الحل إلاّ أن نقول بأنّه ﷺ أودع علم الكتاب في أحد الثقلين الذين طهرهم الله من الرجس تطهيراً، فقاموا بتفسير القرآن بالمأثور عن النبي المودَع في مجاميع كثيرة يقف عليها المتتبع في أحاديث الشيعة.[٣]

وبما ذكرنا علم أنّ الاقتصار في التفسير بالمأثور على ما روي في كتب القوم لا يرفع الحاجة، وليس للمفسِّر الواعي محيص من الرجوع إلى ما روي عن علي وأولاده المعصومين عليهم السلام في مجال التفسير وهي كثيرة. ولعلّه إليهم يشير قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَورَثْنا الكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا﴾ [٤] فالمصطفون من عباده هم الوارثون علم الكتاب.

ولنذكر نموذجاً من تفسير النبي ﷺ لمّا نزل قوله سبحانه: ﴿كُلُوا وَاشرَبُوا حَتّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيطُ الأَبيَضُ مِنَ الخَيطِ الأَسودِ مِنَ الفَجْرِ﴾[٥] قال عدي بن حاتم: إنّي وضعت

(١) الإتقان: ١٧٥ ـ ١٧٦، ط مصر.
(٢) الإتقان: ١٧٥ ـ ١٧٦، ط مصر.
(٣) كتفسير البرهان للسيد البحراني ؛ نور الثقلين للحويزي، وقبلهما تفسير علي بن إبراهيم وغيرها.
(٤) سورة فاطر، الآية: ٣٢.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

خيطين من شعر أبيض وأسود، فكنت أنظر فيهما، فلا يتبيّن لي، فضحك رسول الله حتى رؤيت نواجذه، ثمّ قال: «**ذلك بياض النهار، وسواد الليل**».[1]

٦ ـ معرفة أسباب النزول

إنَّ لمعرفة أسباب النزول دوراً هاماً في رفع الإبهام عن الآيات التي وردت في شأن خاص، لأنَّ القرآن الكريم نزل نجوماً عبر ثلاثة وعشرين عاماً إجابة لسؤال، أو تنديداً لحادثة، أو تمجيداً لعمل جماعة، إلى غير ذلك من الأسباب التي دعت إلى نزول الآيات، فالوقوف على تلك الأسباب لها دور في فهم الآية بحدها ورفع الإبهام عنها، فلنأت بأمثلة ثلاثة يكون لسبب النزول فيها دور فعال بالنسبة إلى رفع إبهام الآية.

١. إنّه سبحانه يندِّدُ بأشخاص ثلاثة تخلّفوا عن الجهاد في سبيل الله حتّى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وظنَّ هؤلاء بأنّه لا محيص من اللجوء إلى الله سبحانه، فتابوا فقبلت توبتهم، لأنّه سبحانه تواب رحيم، يقول:

﴿وَعَلى الثَّلاثَةِ الّذِينَ خُلِّفُوا حتّى إذا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرضُ بما رَحُبَتْ وَضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلجأ مِنَ اللهِ إِلاّ إِليهِ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ الله هُوَ التَّوّابُ الرَّحيم﴾.[2]

فلا شكّ أنَّ في الآية عدّة إبهامات:

أ: مَن هؤلاء الثلاثة الذين تخلّفوا؟

ب: ما هي الدواعي التي حدت بهم إلى التخلّف؟

ج: كيف ضاقت عليهم الأرض؟

د: كيف ضاقت عليهم أنفسهم؟

هـ: بأي دليل أدركوا بأنّه لا ملجأ من الله إلاّ إليه؟

و: ما هو المراد من قوله: **﴿ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ﴾**؟

(١) مجمع البيان: ١/٢٨١، ط صيدا.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١١٨.

إنّ الاجابة على هذه الأسئلة تكمن في الوقوف على أسباب النزول، فمن رجع إليها يسهل له الإجابة.[1]

٢ . يقول سبحانه: ﴿**إنّ الصَّفا وَالْمَرْوَة منْ شَعائِرِ الله فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعتَمَرَ فَلا جُناحَ عَليه أنْ يَطَوَّفَ بِهِما وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيراً فَإنّ اللهَ شاكِرٌ عَليم**﴾.[2]

فظهور الآية يوحي إلى عدم وجوب السعي بين الصفا والمروة وإنّما هو جائز بشهادة قوله: «**لا جناح**»، وأمّا إذا رجع إلى سبب النزول، يعرف أنّ قوله «**لا حرج**» لا يزاحم كونه واجباً.

قال الإمام الصادق عليه السلام: كان المسلمون يَرَوْن أنَّ الصفا والمروة ممّا ابتدع أهل الجاهلية فأنزل اللّه هذه الآية وإنّما قال: ﴿**فَلا جُناحَ عَليه أنْ يَطَوَّفَ بِهِما**﴾ وهو واجب أو طاعة على الخلاف فيه، لأنّه كان على الصفا صنم يقال له: إساف وعلى المروة صنم يقال له نائلة وكان المشركون إذا طافوا بهما مسحوهما، فتحرّج المسلمون عن الطواف بهما لأجل الصنمين، فأنزل اللّه هذه الآية.[3]

وبالوقوف على ذلك يعلم أنّ قوله: «**لا جناح**» لا ينافي كون السعي فريضة، لأنّ نفي الجناح نسبي متوجه إلى ما زعمه بعض المسلمين مانعاً من السعي، فقال سبحانه لا يضر هذا وعليكم السعي بين الصفا والمروة وإحياء شعائر اللّه.

٣ . **قال سبحانه: ﴿يَسْألُونَكَ عَنِ الأهِلَّة قُلْ هِيَ مَواقيتُ لِلنّاسِ وَالْحَجّ وَلَيْسَ البِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا البُيُوتَ مِنْ ظُهُورِها وَلكِنَّ البِرّ مَنِ اتّقى وَأْتُوا البُيُوت مِنْ أَبْوابِها وَاتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون﴾**.[4]

(١) مجمع البيان: ٣ / ٧٨. ومرّ الإيعاز إليه في ص ١٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥٨.
(٣) مجمع البيان: ١ / ٢٤٠.
(٤) مجمع البيان: ١ / ٢٨٤.

فالإنسان في بدو الأمر يتعجّب من قوله سبحانه: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ ولكن بعد ما يقف على سبب النزول يزول تعجبه.

كان المحرِم عند بعض الطوائف لا يدخل بيته من بابه بل كان ينقب في ظهر بيته نقباً يدخل ويخرج منه فنزلت الآية بالنهي عن التديّن بذلك.

وفي الختام نضيف: إنَّه لا يمكن الاعتماد على كلّ ما ورد في الكتب باسم أسباب النزول، بل لابدّ من التحقيق حول سنده والكتاب الذي ورد فيه، فإنَّ أكثر المفسّرين في القرون الأُولى أخذوا علم التفسير من مستسلمة أهل الكتاب، خصوصاً فيما يرجع إلى قصص الأنبياء وسيرة أقوامهم، فلا يمكن الاعتماد على كلام هؤلاء.

يقول المحقّق الشيخ محمد جواد البلاغي:

وأمّا الرجوع في التفسير وأسباب النزول إلى أمثال عكرمة ومجاهد وعطاء وضحاك كما ملئت كتب التفسير بأقوالهم المرسلة، فهو ممّا لا يعذر فيه المسلم في أمر دينه فيما بينه وبين الله ولا تقوم به الحجّة، لأنّ تلك الأقوال إن كانت روايات فهي مراسيل مقطوعة، ولا يكون حجّة من المسانيد إلاّ ما ابتنى على قواعد العلم الديني الرصينة، ولو لم يكن من الصوارف عنهم إلاّ ما ذكر في كتب الرجال لأهل السنّة لكفى.[1]

ثمّ ذكر قدس سره ما ذكره علماء الرجال في كتبهم في حقّ عكرمة ومجاهد وعطاء والضحاك وقتادة ومقاتل الذين هم المراجع في نقل كثير من الإسرائيليات والمسيحيات في تفسير الآيات.

٧ ـ الإحاطة بتاريخ صدر الإسلام

بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم من بين أُمّة أُميّة لها ثقافتها الخاصة وتقاليدها وعاداتها، فالقرآن الكريم يشير في كثير من الآيات إلى تلك العادات الجاهلية المتوارثة؛ إنّ الاطّلاع على

(١) آلاء الرحمن: ٤٥.

تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده يوضح مفاد كثير من الآيات ويكشف النقاب عنها، فلنذكر نماذج لذلك:

أ: إنَّه سبحانه يذكر في سورة الأنعام تقاليد العرب وعاداتهم ويقول:

﴿وَجعَلُوا لله ممّا ذَرأ مِنَ الحَرْث والأَنعام نَصيباً فَقالُوا هذا لله بِزَعْمِهِمْ وهذا لشُركائنا فَماكانَ لشُركائهمْ فَلا يَصِلُ إلى الله وما كانَ لله فَهُوَ يَصلُ إلى شُرَكائهِمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ * وَكَذلكَ زَيَّنَ لِكَثير مِنَ المُشْركينَ قَتْلَ أولادهمْ شُركاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دينَهُمْ وَلَوْ شاءَ الله ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ * وَقالُوا هذه أَنْعامٌ وَحَرْثٌ حَجْرٌ لا يَطْعَمُها إلاّ مَنْ نَشاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها وَأَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسمَ الله عَلَيْهَا افْتراءً عَليه سَيَجْزيهِمْ بِما كانُوا يَفْتَرُونَ﴾.[1]

إنَّ هذه الآيات يسودها كثير من الغموض والإبهام، ولكن إذا رجعنا إلى ما رواه المؤرّخون في ذلك المضمار من تقاليدهم حينها يزاح الغموض الذي يكتنفها.

ولا يقتصر المفسِّر على هذا المقدار من التاريخ، فإنَّ الآيات النازلةَ في الغزوات والحروب، وفي بعث السرايا لها دور في رفع الإبهام وانكشاف الحقيقة على ما هي عليه.

وفي وسع المفسِّر أن يرجع إلى الكتب المعدّة لبيان تاريخ الإسلام، وأخص بالذكر «**السيرة النبوية**» لابن هشام (المتوفّى عام ٢١٨ هـ) وتاريخ اليعقوبي (المتوفّى ٢٩٠ هـ) وتاريخ الطبري (المتوفّى ٣١٠ هـ) وتفسيره، و«**مروج الذهب**» للمسعودي (المتوفّى ٣٤٥ هـ) و«**الإمتاع**» للمقريزي (المتوفّى ٨٤٥ هـ) إلى غير ذلك من الكتب المعدّة.

قال الشيخ عبده: أنا لا أعقل كيف يعقل لأحد أن يفسر قوله تعالى: **﴿كانَ الناسُ أُمّةً واحدة فَبَعَثَ الله النّبيينَ مُبشّرينَ ومُنذرين﴾**[2] الآية، وهو لا يعرف أحوال البشر، وكيف اتّحدوا؟ وكيف تفرّقوا؟ وما معنى تلك الوحدة التي كانوا عليها ؟ وهل كانت نافعة أو ضارة ؟ وماذا كان من آثار بعثة الأنبياء فيهم؟[3]

---

(١) سورة الأنعام، الآيات: ١٣٦ ـ ١٣٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

(٣) تفسير المنار: البقرة: تفسير الآية ٢١٣.

والحقّ أنَّ تفسير الآيات الواردة في الأُمم الغابرة ابتداءً من آدم وانتهاءً إلى نبيّنا خاتم الأنبياء والرسل رهن الوقوف على تاريخهم وسيرتهم وأعرافهم.

٨ ـ تمييز الآيات المكّية عن المدنية

عرف المكي بما نزل قبل الهجرة، والمدني بما نزل بعدها، سواء نزل بمكة أم بالمدينة، عام الفتح أم عام حجّة الوداع أم بِسفَرٍ من الأسفار.[١]

ثمّ إنّ الوقوف على الآيات المدنية وتمييزها عن المكية يحصل من خلال أُسلوبين:

الأوّل: الأخذ بأقوال المفسِّرين ومؤلّفي علوم القرآن، فقد ميّزوا السور المكية عن السور المدنية، كما ميّزوا الآيات المدنية التي جعلت في ثنايا السور المكية وبالعكس.

الثاني: دراسة مضمون الآية وأنَّها هل كانت تناسب البيئة المكية أو المدنية ؟ حيث إنَّ الطابعَ السائد على أكثر الآيات المكية هو مكافحة الشرك والوثنية، ونقد العادات والتقاليد الجاهلية، والدعوة إلى الإيمان بالمعاد، والتنديد بالكافرين والمشركين ؛ في حين أنَّ الطابعَ السائد على أكثر الآيات المدنية هو تشريع الأحكام في مختلف المجالات، والجدال مع أهل الكتاب في إخفاء الحقائق، والتنديد بالمنافقين الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، إلى غير ذلك من العلائم والملامح التي يمكن أن يتميّز بها المكي عن المدني.

وقد ذكر السيوطي بسند خاص عن ابن عباس أسماء السور المدنيّة بعدما أنهى ذكر السور المكّية، وإليك أسماء السور المدنية، وبالوقوف عليها تعلم السور المكّية:

سورة البقرة، ثمّ الأنفال، ثمّ آل عمران، ثمّ الأحزاب، ثمّ الممتحنة، ثمّ النساء، ثمّ إذا زلزلت، ثمّ الحديد، ثمّ القتال، ثمّ الرعد، ثمّ الإنسان، ثمّ الطلاق، ثمّ لم يكن، ثمّ الحشر، ثمّ إذا جاء نصر الله، ثمّ النور، ثمّ الحج، ثمّ المنافقون، ثمّ المجادلة، ثمّ

(١) الإتقان: ١ / ٢٦.

الحجرات، ثمّ التحريم، ثمّ الجمعة، ثمّ التغابن، ثمّ الصف، ثمّ الفتح، ثمّ المائدة، ثمّ براءة[1].

وأمّا الحاجة لتمييز المكي عن المدني فلأنّه يرفع الإبهام العالق ببعض الآيات، مثلاً: إنَّ سورة الشورى التي ورد فيها قوله سبحانه: ﴿**قُلْ لا أَسأَلُكُمْ عَليه أَجراً إلاّ المَوَدَّة فِي القُربى**﴾[2] سورة مكية مع أنّ هذه الآية حسب المأثور المتواتر نزلت في أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم أعني: علياً و فاطمة والحسن والحسين عليهم السلام فربما يستبعد نزولها في حقّ أهل البيت بحجة أنَّ السورة مكية ولم يكن يومذاك في مكة الحسن والحسين، ولكنّه لو وقف على أنّ مكية السورة لا تلازم مكية عامة آياتها، لما استبعد نزولها في حقّهم، فكم من سورة مكية وقعت في ثناياها آيات مدنية وبالعكس، وهذه السورة من القسم الأوّل وإن كانت مكية لكن بعض آياتها مدنية ومنها هذه الآية، وقد صرح به علماء التفسير في كتبهم [3]، حتى أنّك تجد في المصاحف المصرية المطبوعة تحت إشراف مشيخة الأزهر، التصريح بأنّ سورة الشورى مكية إلاّ الآيات ٢٧، ٢٥، ٢٤، ٢٣ فمدنية.

٩ ـ الوقوف على الآراء المطروحة حول الآية

إنّ الآراء الموروثة من الصحابة والتابعين ثمّ علماء التفسير إلى يومنا هذا ثروة علمية ورثناها من الأقدمين، وهم قد بذلوا في تفسير الذكر الحكيم جهوداً كبيرة، فألّفوا مختصرات ومفصّلات وموسوعات حول القرآن الكريم، فالإحاطة بآرائهم والإمعان فيها وترجيح بعضها على بعض بالدليل والبرهان من أُصول التفسير شريطة أن يبحث فيها بحثاً موضوعياً بعيداً عن كلّ رأي مسبق.

١٠ ـ الاجتناب عن التفسير بالرأي

المراد من التفسير بالرأي هو أنَّ المفسِّر يتخذ رأياً خاصاً في موضوع بسبب من

(١) الإتقان: ١ / ٣١.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٢٣.

(٣) لاحظ كتاب «نظم الدرر و تناسق الآيات والسور : تأليف إبراهيم بن عمر البقاعي الشافعي من علماء القرن التاسع، وقد ذكر في كتابه انّ الآية مدنية.

الأسباب ثمّ يعود فيرجع إلى القرآن حتى يجد له دليلاً من الذكر الحكيم يعضده، فهو في هذا المقام ليس بصدد فهم الآية وإنّما هو بصدد إخضاع الآية لرأيه وفكره، وبذلك يبتعد عن التفسير الصحيح للقرآن.

وقد حذّر النبي ﷺ كافة المسلمين من التفسير بالرأي أو التفسير بغير علم، فقال: « من قال في القرآن بغير علم فليتبوّأ مقعده من النار»[١].

وقال: «من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»[٢].

وليس النهي عن التفسير بالرأي منحصراً بالأحاديث النبوية، بل القرآن الكريم يندّد بالتقوّل على الله بما لا يعلم ويقول: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلى اللهِ مَا لا تَعْلَمُون﴾[٣].

ويقول: ﴿ولا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْم﴾.[٤]

فمن يفسِّر القرآن برأيه، فقد قضى بما ليس له به علم وتقوّل على الله بما لا يعلم.

وقد راج التفسير بالرأي بطابَع علمي في العصور المتأخرة بعد الثورة الصناعية التي اجتاحت الغرب، فإنَّ الفروض العلمية التي طرحت من قبل علماء الطبيعة والفلك هي فروض غير مستقرة لا يمكن الركون إليها في تفسير الذكر الحكيم، ولذلك سرعان ماتتبدّل النظريات العلمية إلى أُخرى؛ فمن حاول أن يخضع القرآن الكريم للاكتشافات العلمية الحديثة، فقد فسّر القرآن برأيه، وإن صدق في نيته وأراد إبراز جانب من جوانب الإعجاز القرآني، ولنذكر نموذجاً:

نشر جارلز داروين كتابه «**تحوّل الأنواع**» عام ١٩٠٨ م فأثبت فيه وفق تحقيقاته أنَّ الإنسان هو النوع الأخير من سلسلة تطور الأنواع، وأنَّ سلسلته تنتهي إلى حيوان شبيه بالقردة، فذكر آباءه وأجداده بصورة شجرة خاصة مترنماً قول الشاعر:

(١) أخرجه البيهقي من حديث ابن عباس كما في البرهان في علوم القرآن: ٢ / ١٦١.
(٢) أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي على ما في البرهان
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٦٩.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

أُولئك آبائي فجئني بمثلهم...

كان لنشر هذه النظرية ردّ فعل سيّئ في الأوساط الدينية دون فرق بين الأوساط المسيحية والمسلمة واليهودية الذين اتّفقوا على أنّ الإنسان كائن إبداعي وأنَّ سلسلته تنتهي إلى آدم أبي البشر الذي خُلق بهذه الصورة من دون أن يكون له صلة بسائر الحيوانات.

ثمّ إنّ بعض السُّذَّج من الناس اتّخذوا تلك الفرضية ذريعة لتعارض العلم والدين وفصله عن الآخر، فزعموا أنَّ منهج الدين غير منهج العلم، فربما يجتمعان وربما يفترقان.

وهناك من لم يؤمن بفصل العلم عن الدين فحاول إخضاع القرآن الكريم للفرضية، فأخذ يفسِّر ما يرجع إلى خلقة الإنسان في سور مختلفة على وجه ينطبق على تلك الفرضية.

هذا و كان السجال حاداً بين المتعبّدين بالنص والمتأوّلين له إلى أن أثبت الزمان زيف الفرضية والفروض التي جاءت بعده حول خلقة الإنسان.

وليست خلقة الإنسان موضوعاً فريداً في هذا الباب، بل لم يزل أصحاب البدع والنحل في دأب مستمر لإخضاع القرآن لآرائهم وعقائدهم، فهذه النِّحَل الكثيرة السائدة بين المسلمين اتّخذوا القرآن ذريعة لعقائدهم، فما من منتحل إلاّ ويستدلّ بالقرآن على صحة عقيدته مع أنّ الحقّ واحد وهؤلاء متكثّرون.

وكـــلّ يـــدّعـــي وصـــلاً بـليـلـى ... ولـيـلـى لا تـقـرّ لـهـم بـذاكـا

ولقد كان لتفسير القرآن بالرأي دور في ظهور النِّحَل والبدع بين المسلمين، وكأنّ القرآن نزل لدعم آرائهم ومعتقداتهم !! أعاذنا اللّه وإيّاكم من التفسير بالرأي.

هذه شرائط عشرة ينبغي للمفسِّر أن يتحلّى بها، وهناك آداب أُخرى ذكرها العلماء في كتبهم لم نتعرض إليها خشية الإطالة.

وثمة كلمة قيمة للعلاّمة الشيخ محمد جواد مغنية جاء فيها:

ولابدّ لهذا العلم من معدّات ومؤهّلات، منها العلوم العربية بشتى أقسامها، وعلم الفقه وأُصوله، ومنها الحديث وعلم الكلام، ليكون المفسِّر على بيّنة ممّا يجوز على الله وأنبيائه، وما يستحيل عليه وعليهم، ومنها كما يرى البعض علم التجويد والقراءات.

وهنا شيء آخر يحتاج إليه المفسر، وهو أهم وأعظم من كلّ ما ذكره المفسرون في مقدمة تفاسيرهم، لأنّه الأساس والركيزة الأُولى لتفهم كلامه جلّ وعلا. ولم أر من أشار إليه، وقد اكتشفته بعد أن مضيت قليلاً في التفسير، وهو أنَّ معاني القرآن لا يدركها، ولن يدركها على حقيقتها، ويعرف عظمتها إلاّ من يحسها من أعماقه، وينسجم معها بقلبه وعقله، ويختلط إيمانه بها بدمه ولحمه، وهنا يكمن السر في قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**ذاك القرآن الصامت، وأنا القرآن الناطق**».[1]

خلاصة

شروط التفسير التي ينبغي للمفسّر أن يتحلّى بها:

١. **معرفة قواعد اللغة العربية:** فالقرآن نزل باللغة العربية ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ**﴾.

٢. **العلم بمعاني المفردات:** فلولا العلم بمعنى «الصعيد» كيف يمكن أن يُفسر قوله سبحانه: ﴿**فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا**﴾.

٣. **أن يبدأ بتفسير القرآن بالقرآن:** لأن القرآن يفسّر بعضه بعضاً.

٤. **الحفاظ على سياق الآيات:** فتقطيع الآية بعضها عن بعض، والنظر إلى الجزء دون الكل لا يعطي للآية حقها في التفسير.

٥. **الرجوع إلى الأحاديث الصحيحة وإجماع المسلمين:** الكثير من الآيات مجملة ورد

(١) الكاشف: ١/٩ - ١٠.

تفسيرها في السنة القطعية وإجماع المسلمين وأحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام كالصلاة والزكاة والحج وغير ذلك، فبالرجوع إليها يرتفع الإجمال ويُبيّن المبهم.

٦. **معرفة أسباب النزول:** إنَّ لمعرفة أسباب النزول دوراً هاماً في رفع الإبهام عن الآيات التي وردت في شأن خاص.

٧. **الإحاطة بتاريخ صدور الإسلام:** الاطِّلاع على تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده يوضح مفاد كثير من الآيات ويكشف النقاب عنها.

٨. **تمييز الآيات المكية عن المدنية:** فلأنَّه يرفع الإبهام العالق ببعض الآيات.

٩. **الوقوف على الآراء المطروحة حول الآية:** فالإحاطة بآراء الصحابة والتابعين ثم علماء التفسير وترجيح بعضها على بعض بالدليل والبرهان من أصول التفسير.

١٠. **الاجتناب عن التفسير بالرأي:** وهو أن المفسّر يتخذ رأياً خاصاً في موضوع بسبب من الأسباب ثم يعود إلى القرآن حتى يجد له دليلاً يعضده وهناك آداب أخرى ذكرها العلماء لم نتعرض لها.

الدرس الثالث

القرآن قطعي الدلالة

قسّم الأُصوليون دلالة الكلام على معناه إلى: دلالة قطعية، ودلالة ظنية، فوصفوا دلالة النصوص على معانيها بالدلالة القطعية التي لا يحتمل خلافها، ودلالة الظواهر دلالة ظنية تقابل الأُولى.

هذا من جانب، ومن جانب آخر أنَّ نصوصَ القرآن بالنسبة إلى الظواهر أقل، وبذلك أصبحت دلالة القرآن على مضامينها دلالة ظنية لا قطعية.

ولأجل وصف دلالة الظواهر على مقاصدها بالظنية، سَهُل التصرف في القرآن الكريم بحجج عقلية أو علمية بحجّة أنَّ دلالة القرآن ظنية لا تقاوم الحجج الفعلية والبراهين العلمية.

ولكن وصف دلالة الآيات بالظنية يوجب كون القرآن حجّة ظنية ومعجزة غير قطعية مع أنّ الإعجاز يقوم على أساس من القطع واليقين.

فالإعجاز البياني قائم على جمال اللفظ وأناقة الظاهر من جانب، وجمال العرض وسموّ المعنى وعلوّ المضمون من جانب آخر، فلو كانت دلالة القرآن على الجانب الآخر ـ أي المعنى ـ دلالة ظنية يُصبح القرآن معجزة ظنية تبعاً لأخسّ المقدّمتين، وهذا من النتائج السلبية لتقسيم دلالة القرآن إلى القطعي والظنّي ولا يلتزم به أحد إذا أمعن، ومع ذلك فنحن نعتقد ـ غير هذا ـ بأنّ دلالة الظواهر كالنصوص على معانيها دلالة قطعية لا ظنية، وذلك بالبيان التالي:

إنّ أساس المحاورة بين الناس هو القطع بالمراد من ظواهر الكلام لا الظن به، وإلاّ لما قام صَرْح الحياة.

كيف لا يكون كذلك فإنَّ ما يتفوّه به الطبيب يتلقّاه المريض مفهوماً واضحاً لا تردد فيه، وما يتلقّاه السائل من الجواب من خبير يسكن إليه السائل بلا تردد.

ومع ذلك فكيف يُدّعى أنَّ ظواهر الكتاب والسنّة أو ما دار بين النبي والسائل هي ظواهر ظنّية ؟!

إنَّ القضاء الحاسم في أنَّ كشف الظواهر عن مراد المتكلّم هل هو كشف قطعي أو ظنّي؟ يتوقّف على بيان المهمّة الملقاة على عاتق الظواهر و ما هي رسالتها في إطار المحاورة، فلو تبيّن ذلك لسهل القضاء بأنّ الكشف قطعي أو ظنّي.

فنقول: إنَّ للمتكلّم إرادتين:

١. إرادة استعمالية، وهي استعمال اللفظ في معناه، أو إحضار المعاني في ذهن المخاطب، سواء أكان المتكلّم جادّاً أم هازلاً أم مورّياً أم غير ذلك، سواء أكان المعنى حقيقياً أو مجازياً.

٢. إرادة جدية، وهي أنَّ ما استُعْمل فيه اللفظ مراد له جداً، وما هذا إلاّ لأنّه ربما يفارق المراد الاستعمالي، المراد الجدي، كما في الهازل والمورّي والمقنّن الذي يُرتّب الحكم على العام والمطلق مع أنّ المراد الجدي هو الخاص والمقيد، ففي هذه الموارد تغاير الإرادةُ الجدية الإرادةَ الاستعمالية، إمّا تغايراً كليّاً كما في الهازل والمورّي واللاغي، أو تغايراً جزئياً كما في العام الذي أُريد منه الخاص، أو المطلق الذي أُريد منه المقيد بالإرادة الجدية.

وعلى ضوء ذلك فيجب علينا أن نحلّل أمرين:

الأوّل: ما هي الرسالة الموضوعة على عاتق الظواهر ؟

الثاني: ما هو السبب لتسميتها ظنوناً ؟

أمّا الأوّل: فالوظيفة الملقاة على عاتق الظواهر عبارة عن إحضار المعاني التي تعلّقت بها الإرادة الاستعماليّة في ذهن المخاطب سواء أكانت المعاني حقائق أم مجازات، فلو قال: رأيت أسداً، فرسالته إحضار أنَّ المتكلّم رأى الحيوان المفترس، وإذا قال: رأيت أسداً في الحمام، فرسالته إحضار أنَّ المتكلّم رأى رجلاً شجاعاً فيه، فكشف الجملة في كلا الموردين عن المراد الاستعمالي كشف قطعي وليس كشفاً ظنيّاً، وقد أدّى اللفظ رسالته بأحسن وجه. وعلى ذلك لا تصحّ تسميته كشفاً ظنياً، اللهمّ إلاّ إذا كان الكلام مجملاً أو متشابهاً، فالكلام عندئذ قاصر عن إحضار المعنى الاستعمالي بوجه متعيّن، لكنّهما خارجان عن محطّ البحث والكلام في الظواهر لا في المجملات.

وأمّا الثاني: أي السبب الذي يوجب تسمية ذلك الكشف ظنياً، فإنّه يتلخص في الأُمور التالية:

١ . لعلّ المتكلّم لم يستعمل اللفظ في أيّ معنى.

٢ . أو استعمل في المعنى المجازي ولم ينصب قرينة.

٣ . أو كان هازلاً في كلامه.

٤ . أو مورّياً في خطابه.

٥ . أو لاغياً فيما يلقيه.

٦ . أو أطلق العام وأراد الخاص.

٧ . أو أطلق المطلق وأراد المقيّد.

إلى غير ذلك من المحتملات التي توجب الاضطراب في كشف المراد الاستعمالي عن المراد الجدي على وجه القطع.

ولكن أُلفت نظر القارئ إلى أُمور ثلاثة لها دور في المقام:

١. إنَّ علاج هذه الاحتمالات ليس من وظائف الظواهر حتى يوصف كشف الظواهر عن المراد الجدي لأجلها بالظنيّة، وذلك لما عرفت من أنّ المطلوب من الظواهر ليس إلاّ شيء واحد، وهو إحضار المعاني في ذهن المخاطب، وأمّا الاحتمالات المذكورة وكيفية دفعها فليس لها صلة بالظواهر حتى يوصف كشفها لأجلها، بأنّ دلالتها ظنيّة.

٢. إنَّ بعض هذه الاحتمالات موجود في النصوص، فاحتمال كون المتكلم لاغياً، أو هازلاً، أو مورّياً أو متّقياً، أو غير ذلك من الاحتمالات موجود فيها، و مع ذلك نرى أنّهم يعدّونها من القطعيات.

٣. إنَّ القوم عالجوا هذه الاحتمالات بادّعاء وجود أُصول عقلائية دافعة لها، ككون الأصل، هو كون المتكلّم في مقام الإفادة، لا الهزل ولا التمرين، بدافع نفسي، لا بدافع خارجي كالخوف وغيره.

وقد عرفت أنَّ الحياة الاجتماعية مبنيّةٌ على المفاهمة بالظواهر، ففي مجال المفاهمة والتفاهم بين الأُستاذ والتلميذ والبائع والمشتري والسائس والمسوس، يعتبر المخاطبُ دلالة كلام المتكلّم على المراد الاستعمالي والجدي دلالة قطعية لا ظنيّة، لأجل عدم الالتفات إلى تلك الاحتمالات وانسحابها عن الأذهان.

نعم إذا كان هناك إبهام أو إجمال، أو جرت العادة على فصل الخاص والقيد عن الكلام، يكون الكلام إمّا غير ظاهر في شيء أو يكون حجّية الظهور معلّقاً على عدم ورود دليل على الخلاف كما في مورد العام والمطلق.

وبذلك خرجنا بأنَّ كشف الظواهر عن المراد الاستعمالي، بل المراد الجدي، على ما عرفت أخيراً في مجال المفاهمة، كشف قطعي ولا يُعرَّج إلى تلك الشكوك.

الصفات الخبرية وكون الظواهر قطعية

إذا كان الأخذ بظواهر الكلام أمراً لازماً في الذكر الحكيم والسنّة القطعية، فكيف تُفسّر الصفات الخبرية التي تدلّ بظواهرها على التجسيم والتشبيه تعالى عن ذلك علواً كبيراً؟

فهل يمكن لنا الأخذ بظاهر قوله سبحانه: ﴿وَالسَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْد وَإِنّا لَمُوسِعُون﴾[1]، فظاهر الآية يدلّ على أنّه سبحانه بنى السماء بأيديه وأنَّ له يداً كالإنسان، كما أنّ ظاهر قوله سبحانه ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[2] أنَّه سبحانه استقر على عرشه وسريره، فالقول بلزوم الأخذ بالظواهر يستلزم حمل هذه الآيات على ظواهرها المنبئة عن التجسيم والجهة؟

هذا هو السؤال المطروح في المقام، وللإجابة عنه، نقول:

قد عرفت أنَّ الضابطة الكلية، أعني: لزوم الأخذ بظاهر الكتاب والسنّة القطعية، أمر لا يمكن النقاش فيها، ولا يصحّ استثناء آية من تلك الضابطة بعدَ تشخيص الظاهر عن غيره، فلو تبيّن بالدلائل القطعية ما هو الظاهر يجب اتّباعه، لكن الكلام في تعيين الظاهر، و تمييز الظهور التصديقي عن الظهور التصوّري، والظهور البدوي عن الظهور النهائيّ، ومثل هذا لا يتحقق إلاّ بالتأمّل والإمعان في نفس الآية الكريمة وما اختصّ بها من القرائن اللفظية، فعندئذ يتميّز الظاهر عن غيره فيجب الأخذ به بلا كلام. والتجسيم والتشبيه إنّما هو في الظهور البدوي، دون الظهور النهائي بعد الإمعان في الآية.

وما ربما يتصوّر من أنّ أهل العدل والتنزيه يحملون الآيات الواردة فيها الصفات الخبرية على خلاف ظواهرها، فهو كلام غير صحيح، فإنّهم لا يأخذون بالظهور التصوّري أو الظهور البدوي للآيات، وأمّا الظهور التصديقي أو الاستقراري فيأخذونه بتمامه، ولا يحملونها على غير ظاهرها.

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٤٧.

(٢) سورة طه، الآية: ٥.

ولتمييز الظهور الجزئي عن الظهور الجملي، والتصوّري عن التصديقي نأتي بمثالين:

١. **إذا قلت:** رأيت أسداً في الحمام، فلفظة «أسد» وحدها ظاهرة في الحيوان المفترس ولكنّها بظهورها الجملي ظاهرة في الرجل الشجاع، فلو قيل: إنّ الجملة حملت على خلاف ظاهرها، فإنّما يصحّ بالنسبة إلى ظهور جزء من الكلام، أعني: الأسد دون المجموع، فاللازم للأخذ هو الظهور الجملي لا الجزئي.

٢. **إذا قلت:** زيد كثير الرماد، فالظهور البدوي أنَّ بيت زيد غير نظيف ولكنّه ظهور بدوي، فإذا لوحظ أنَّ الكلام ورد في مقام المدح يكون قرينة على أنّ المراد لازم المعنى وهو الجود؛ فلو قيل بأنّ الكلام حمل على خلاف ظاهره، فإنّما هو بحسب ظهوره البدوي لا الاستقراري، فالذي يجب الأخذ به هو الظهور الجملي لا الحرفي، والظهور المستقر لا البدوي.

وعلى ذلك فحمل الجملة الأُولى على الحيوان المفترس والثانية على الجود أخذ بالظاهر وليس فيه شائبة تأويل، ومن يرمي هذه التفاسير بالتأويل فهو لا يفرق بين الظهورين: البدوي والاستقراري.

إذا عرفت ذلك، فاعلم أنّ الآيات الحاكية عن الصفات الخبرية إذا لوحظت مع القرائن المحتفة بالكلام، يتبيّن الظهور التصوّري عن التصديقي والابتدائي عن الاستقراري، ويتبين أنَّ هذه الآيات غنية عن التأويل (بمعنى حمل الظاهر التصديقي على خلاف ظاهره) وأنّ دلالتها على معانيها قطعيّة لكن بالشرط الذي ذكرناه.

ولأجل توضيح ذلك نفسر الآيات التي ورد فيها لفظ اليد حتى يتضح أنَّ تلك الآيات ليست بحاجة إلى التأويل بهذا المعنى، أي حمل الظاهر على خلافه، ويكون مقياساً لسائر الآيات التي ربما يكون ظاهرها البدويّ، موهماً خلاف التنزيه.

١. يقول سبحانه ﴿قالَ يا إبليسُ ما مَنَعَكَ أن تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيّ أَسْتَكْبَرتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ العالين﴾.[١]

فنقول: إنّ اليد في الآية استعمل في العضو المخصوص ولكن كُنّي بها عن الاهتمام بخلقة آدم حتى يتسنّى بذلك ذم إبليس على ترك السجود لآدم، فقوله سبحانه: ﴿**ما منَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بيدي**﴾ كناية عن أنّ آدم لم يكن مخلوقاً لغيري حتى يصحّ لك يا شيطان التجنّب عن السجود له، بحجة أنّه لا صلة له بي، مع أنّه موجود خلقتُه بنفسي، ونفخت فيه من روحي، فهو مخلوقي الذي قمت بخلقه، فمع ذلك تمرّدت عن السجود له.

فأُطلقت الخلقةُ باليد وكُنّي بها عن قيامه سبحانه بخلقه، وعنايته بإيجاده، وتعليمه إيّاه أسماءه، لأنّ الغالب في عمل الإنسان هو القيام به باستعمال اليد، يقول: هذا ما بنيته بيدي، أو ما صنعته بيدي، أو ربيّته بيدي، ويراد من الكل هو القيام المباشري بالعمل، وربما استعان فيه بعينه وسمعه وغيرهما من الأعضاء، لكنّه لا يذكرها ويكتفي باليد. وكأنّه سبحانه يندد بالشيطان بأنّك تركتَ السجود لموجود اهتممت بخلقه وصنعه.

٢. ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمّا عَمِلَت أَيْدِينا أَنعاماً فَهُمْ لَها مالِكُون﴾،[٢] فالمجسّمة المتعبّدة بظواهر النصوص البدوية تستدلّ بالآية على أنّ للّه سبحانه أيدٍ يقوم بها بالأعمال الكبيرة، ولكن المساكين اغترّوا بالظهور التصوريّ ولم يتدبّروا في الظهور التصديقي، أخذوا بالظهور الجزئي دون الجملي، فلو كانوا مُمْعِنين في مضمون الآية وما احتفّ بها من القرائن، لميّزوا الظهور التصديقي الذي هو الملاك عن غيره، فإنَّ الأيدي في الآية كناية عن تفرّده تعالى بخلق الأنعام وأنَّه لم يشاركه أحد فيها، فهي مصنوعة للّه تعالى والناس ينتفعون بها، فبدل أن يشكروا، يكفرون بنعمته، وأنت إذا قارنت بين الآيتين تقف على أنّ المقصود

(١) سورة ص، الآية: ٧٥.
(٢) سورة يس، الآية: ٧١.

هو المعنى الكنائي، والمدار في الموافقة والمخالفة هو الظهور التصديقي لا التصوري.

قال الشريف المرتضى[1]: قوله تعالى: ﴿**لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**﴾ جار مجرى قوله: «لماخلقت أنا» وذلك مشهور في لغة العرب. **يقول أحدهم**: هذا ما كسبتْ يداك، وما جرت عليك يداك. وإذا أرادوا نفي الفعل عن الفاعل استعملوا فيه هذا الضرب من الكلام فيقولون: فلان لا تمشي قدمه، ولا ينطق لسانه، ولا تكتب يده، وكذلك في الإثبات، ولا يكون للفعل رجوع إلى الجوارح في الحقيقة بل الفائدة فيه النفي عن الفاعل.

٣. قال سبحانه: ﴿**وَالسَّماء بَنَيْناها بِأَيد وَانّا لَمُوسِعُون**﴾[2] فاليد وإن كانت ظاهرة في العضو الخاص لكنّها في الآية كناية عن القوة والإحكام بقرينة قوله: «**وانّا لموسعون**» وكأنّه سبحانه يقول: والسماء بنيناها بقدرة لا يوصف قدرها وإنّا لذو سعة في القدرة لا يعجزها شيء، أو بنيناها بقدرة عظيمة ونوسعها في الخلقة.

(١) أمالي المرتضى: ١ / ٥٦٥.
(٢) سورة الذاريات، الآية: ٤٧.

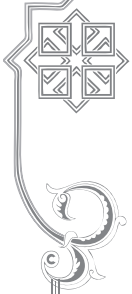

خلاصة

١. إنَّ دلالة ظواهر الكتاب والسنّة القطعية على مضامينها دلالة قطعية.

٢. لا يجوز تأويل الآيات بمعنى حملها على خلاف ظاهرها إلاّ في مورد جرت السنّة فيه على إمكان إرادة خلاف الظاهر كما هو الحال في مجال التقنين والتشريع.

٣. إنَّ اللازم في الصفات الخبرية، أعني: اليد والرجل والعين والاستواء، هو تحصيل الظهور التصديقي لا التصوّري، والظهور الجملي لا الجزئي، فعندئذ يتعبّد به ولا يعدل عنه. ولا يحتاج إلى حمل الظاهر على خلافه.

٤. إنَّ اليد في الآيات الثلاث، إمّا كناية عن قيام الفاعل بالفعل مباشرة لا باستعانة من غيره كما في الآيتين الأُوليين، أو كناية عن القدرة الخارقة.

٥. حمل الآية على خلاف ظهورها البدوي أمر لا مانع منه، لأنَّ الظهور البدوي ليس بحجّة ومخالفته لا تعد خلافاً للحجة.

وأمّا حمل الآية على خلاف ظاهرها التصديقي الذي استقر ظهور الكلام فيه أمر غير جائز مطلقاً إلاّ فيما جرت السيرة فيه، أعني: مجال التشريع، مثل: حمل المطلق على المقيد، والعام على الخاص.

وما ربما يتراءى من المشايخ من «أنّ الظواهر خفيفة المؤنة يمكن التصرف فيها» صحيح في الظهور البدوي أو الظهور الجزئي لا في الظهور الجملي والتصديقي الاستقراري.

سؤال: إذ كانت الظواهر قطعية الدلالة فما هو الوجه في اختلاف المفسرين؟

والجواب: إنَّ اختلافهم يرجع إلى الصغرى، وهي عدم وجود ظاهر في البين لأجل الاختلاف في الأُمور التالية:

١ . اختلاف القراءات.

٢ . اختلاف وجود الاعراب وإن اتفقت القراءات.

٣ . اختلاف اللغويين في معنى الكلمة.

٤ . اشتراك اللفظ بين معنيين فأكثر.

٥ . احتمال العموم والخصوص.

٦ . احتمال الإطلاق أو التقييد.

٧ . احتمال الحقيقة أو المجاز.

٨ . احتمال الإضمار أو الاستقلال.

٩ . احتمال الكلمة زائدة.

١٠ . احتمال حمل الكلام على الترتيب وعلى التقديم والتأخير.

١١ . احتمال أن يكون الحكم منسوخاً أو محكماً.

١٢ . اختلاف الرواية في التفسير عن النبي ﷺ وعن السلف (رض).[١]

ما ذكره من وجوه الاختلاف صحيح لكن ثمة وجه آخر للاختلاف هو تطبيق الآية على العقيدة التي يعتنقها المفسر، فالجبري يحاول صرف الآيات الدالة على الاختيار عن ظاهرها، كما أنَّ التفويضي يسعى إلى صرف ما يدلّ بظاهره على أنّ للسماء دوراً في أفعال البشر، إلى صرفها إلى خلاف ظاهرها. وقلّما يتّفق أن يتجرّد المفسر من معتقداته والأُصول التي يتبناها. وهذا هو العامل المهم في اختلاف المفسرين.

(١) ابن الجوزي: التسهيل: ١ / ٩.

ثمّ إنَّ هناك وجهاً آخر للاختلاف وهو الاختلاف في الأُصول التي يجب أن يصدر عنها المفسر. فالشيعي الإمامي يصدر عمّا روي عن النبي وأهل بيته عليهم السلام بطرق خاصة ويفسر بها الآيات لا سيّما فيما يرجع إلى الأحكام، ولكن المفسر العامي يصدر عن غير هذا المصدر فيأخذ بقول كلّ صحابي وإن أدرك النبي يوماً أو يومين أو شهراً ولم تثبت عدالته، كما أنَّ هناك من يأخذ بالإسرائيليات التي جرّت الويلات على المفسرين.

الدرس الرابع

التفسير بالرأي

تضافرت الروايات على النهي عن التفسير بالرأي عن النبي والآل عليهم السلام.

روى الصدوق بإسناده عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال جلّ جلاله: ما آمن بي من فسّر برأيه كلامي**». (١)

وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**إيّاك أن تفسر القرآن برأيك حتى تفقهه عن العلماء**». (٢)

وروى أبو جعفر الطبري، بإسناده عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**من قال في القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النار**» (٣).

أخرج الترمذي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**اتّقوا الحديث إلاّما علمتم، فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار، ومن قال في القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النار**». (٤)

إلى غير ذلك من الروايات الواردة حول النهي عن التفسير بالرأي، غير انّ الذي يجب التركيز عليه هو تحديد التفسير بالرأي، فقد اختلفت كلمتهم في تفسير هذا الموضوع إلى أقوال:

أ ـ تفسير ما لا يدرك علمه إلاّ ببيان الرسول

يظهر من الطبري أنَّه يخصُّ التفسير بالرأي بتفسير آي القرآن الذي لا يدرك علمه

(١) أمالي الصدوق: المجلس الثاني: ٦.
(٢) التوحيد: الباب ٣٦، ص ٢٦٤.
(٣) تفسير الطبري: ١ / ٢٧.
(٤) سنن الترمذي: ٢ / ١٥٧، كتاب التفسير.

إلاّ بنص بيان الرسول، ومن أظهر مصاديقه، الآيات الواردة حول الفرائض كالصلاة والزكاة والحجّ حيث إنّ الأجزاء والشرائط والموانع رهن بيان الرسول، يقول الطبري في ذلك الصدد:

«وهذه الأخبار شاهدة لنا على صحّة ما قلنا من أنّ ما كان من تأويل آي القرآن الذي لا يدرك علمه إلاّ بنصّ بيان رسول الله ﷺ أو بنصبه الدلالة عليه، فغير جائز لأحد القول فيه برأيه، بل القائل في ذلك برأيه وإن أصاب الحقّ فيه فمخطئ فيما كان من فعله بقوله فيه برأيه، لأنَّ إصابته ليست إصابة موقن أنّه محقّ وإنّما هو إصابة خارص وظانّ والقائل في دين الله بالظنّ قائل على الله ما لم يعلم، وقد حرم الله جلّ ثناؤه ذلك في كتابه على عباده، فقال: ﴿قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ وَأَنْ تُشرِكوا بِالله ما لَمْ يُنَزِّل بِهِ سُلْطاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلى الله ما لا تَعْلَمُون﴾ فالقائل في تأويل كتاب الله الذي لا يُدرك علمه إلاّ ببيان رسول الله ﷺ الذي جعل الله إليه بيانه قائل بما لا يعلم وإن وافق قوله ذلك في تأويله ما أراد الله به من معناه، لأنّ القائل فيه بغير علم قائل على الله ما لا علم له به».[1]

الظاهر أنَّ ما ذكره من مصاديق التفسير بالرأي وليس التفسير بالرأي منحصراً به.

ويظهر من السيد الخوئي قدس سره احتمال ذلك المعنى، قال:

ويحتمل أنَّ معنى التفسير بالرأي، الاستقلال في الفتوى من غير مراجعة الأئمّة عليهم السلام مع أنّهم قرناء الكتاب في وجوب التمسك، ولزوم الانتهاء إليهم، فإذا عمل الإنسان بالعموم أو الإطلاق الوارد في الكتاب، ولم يأخذ التخصيص أو التقييد الوارد عن الأئمّة كان هذا من التفسير بالرأي[2].

ب ـ إخضاع القرآن للعقيدة

إنَّ المراد من التفسير بالرأي هو أن يكون الرأي والعقيدة المسبقة هو الملاك للتفسير،

(١) تفسير الطبري: ١ / ٢٧.
(٢) البيان: ٢٨٨.

فالمفسّر ـ مكان أن يتجرد عن الآراء المسبقة ويوطِّن نفسه على ما توحيه الآية حسب الأُصول والقواعد ـ يُخضِعُ القرآنَ لعقيدته، ويعرضه عليها. مع أنَّ القرآن حجّةُ الله على خلقه وعهده إلى عباده فيجب أن يُحتكم إليه ويصدر عن حكمه لا بالعكس.

إنّ موقف المفسر من كلام الله موقف المتعلّم من المعلم، وموقف مجتني الثمرة من الشجرة، فيجب أن يتربص إلى أن ينطلق المعلّم في أخذ ما يلقيه، ويجتني الثمرة في أوانها وفي إيناعها، غير أنَّ هذه الأدوار تنعكس حين التفسير بالرأي.

ومن هذه المقولة دعم أرباب الملل والنحل آراءهم و حججهم بالقرآن مع أنّ لهم آراء متضاربة، والقرآن لا يعترف إلاّ بواحد منها، وما ذلك لأنّهم يصدرون عن التفسير بالرأي ولا يحتكمون إلى القرآن بل ـ مكان عرض عقيدتهم على القرآن ـ يعرضون القرآن على العقيدة ويطبقونه عليها.

ج ـ تفسير القرآن بغير الأُصول الصحيحة

تفسير القرآن بغير الأُصول والقواعد التي يتوقف التفسير عليها، من مقولة التفسير بالرأي، فإنَّ لتفسير كلّ كلام ـ إلهياً كان أم بشرياً ـ أُصولاً لا يعرف المراد من غيره إلاّ في ظلها، وقد عرفت تلك المقدّمات عند البحث في ما يهمّ المفسّر.

وقد أُريد الوجهان من الروايات الناهية عن التفسير بالرأي، وقد اختارهما لفيف من المحقّقين، نذكر ما يلي:

قال أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (المتوفّى ٦٧١ هـ) ـ بعد نقل روايات ناهية عن التفسير بالرأي ـ إنّ النهي يحمل على أحد وجهين:

أحدهما: أن يكون له في الشيء رأي، وإليه ميل من طبعه وهواه، فيتأوّل القرآن على وفق رأيه وهواه، ليحتج على تصحيح غرضه، ولو لم يكن له ذلك الرأي والهوى لما يلوح له من القرآن ذلك المعنى. وهذا النوع يكون تارة مع العلم كالذي يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته، وهو يعلم أنَّ ليس المراد من الآية ذلك، ولكن مقصوده أن

يُلبس على خصمه، وتارة يكون مع الجهل وذلك إذا كانت الآية محتملة فيميل فهمه إلى الوجه الذي يوافق غرضه، ويرجِّح ذلك الجانب برأيه وهواه، فيكون قد فسّر برأيه، أي رأيه حملَه على ذلك التفسير، ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه.

الثاني: أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية، من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة، وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير، فمن لم يُحكِّم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية كثر غلطه، ودخل في زمرة من فسر القرآن بالرأي، والنقل والسماع لابدّ له منه في ظاهر التفسير ليتقي به مواضع الغلط، ثمّ بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط. والغرائب التي لا تفهم إلاّ بالسماع كثيرة، ولا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر. [1]

وقد اختار ابن عاشور (المتوفّى عام ١٢٨٤ هـ) هذا المعنى، فذكر للتفسير بالرأي هذين الوجهين، أيضاً وقال:

الأوّل: أن يكون له ميل إلى نزعة أو مذهب أو نحلة فيتأوّل القرآن على وفق رأيه ويصرفه عن المراد ويُرغمه على تحمله ما لا يساعد عليه المعنى المتعارف، فيجرّ شهادة القرآن لتقرير رأيه، ويمنعه عن فهم القرآن حقّ فهمه ما قيّد عقله من التعصب، عن أن يجاوزه فلا يمكنه أن يخطر بباله غير مذهبه.

الثاني: إنَّ المراد بالرأي هو القول عن مجرّد خاطر دون استناد إلى نظر في أدلّة العربية ومقاصد الشريعة وتصاريفها، وما لا بدّ منه من معرفة الناسخ والمنسوخ وسبب النزول فهذا لا محالة إن أصاب فقد أخطأ في تصوره بلا علم. [2]

(١) تفسير القرطبي: ١ / ٣٣ ـ ٣٤. ولاحظ تفسير الصافي: ١ / ٣٩.
(٢) التحرير والتنوير: ١ / ٣٠ ـ ٣١.

فعلى ذلك التفسير بالرأي يتلخص في أمرين:

الأوّل: أن يتوخَّى من تفسير القرآن دعم عقيدته ورأيه المُسْبَق حتى يحتج بالآية على الخصم أو يبرر به عمله، ففي ذلك الموقف ينظر المفسر إلى القرآن لا بنظر الاهتداء بل بنظر دعم موقفه وعقيدته ومذهبه.

الثاني: الاستبداد بالرأي في تفسير القرآن من دون أن يقتفيَ الأُسلوبَ الصحيح في تفسير القرآن حسب ما قدمناه عند البحث في مؤهلات المفسر.

ويظهر أن السيد الطباطبائي قد خص التفسير بالرأي بالقسم الثاني ببيان آخر وهو أنّ كلام الله سبحانه لرفع مستواه لا يُفسّر كما يفسّر به كلام الإنسان حيث قال:

إنّ الاضافة في قوله «**برأيه**» يفيد معنى الاختصاص والانفراد والاستقلال، بأن يستقل المفسر في تفسير القرآن بما عنده من الأسباب في فهم الكلام العربي، فيقيس كلامه تعالى بكلام الناس، فإنَّ قطعة من الكلام من أيِّ متكلم إذا ورد علينا، لم نلبث دون أن نعمل فيه القواعد المعمولة في كشف المراد الكلامي، ونحكم بذلك أنَّه أراد كذا، كما نجري عليه في الأقارير والشهادات وغيرهما كلّ ذلك ليكون بياننا مبنياً على ما نعلمه من اللغة، ونعهده من مصاديق الكلمات، حقيقة ومجازاً.

والبيان القرآني غير جار هذا المجرى، بل هو كلام موصول بعضه ببعض، في حين أنَّه مفصول ينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض كما قاله علي عليه السلام.

فلا يكفي ما يتحصل من آية واحدة بإعمال القواعد المقررة في العلوم المربوطة في انكشاف المعنى المراد منها دون أن يتعاهد جميع الآيات المناسبة لها ويجتهد في التدبر فيها كما يظهر من قوله تعالى: ﴿**أَفَلا يَتَدبَّرونَ القُرآنَ وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْد غَير اللهِ لَوَجَدُوا فيهِ اختلافاً كَثيراً**﴾.[1]

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.

فالتفسير بالرأي المنهي عنه أمر راجع إلى طريق الكشف دون المكشوف.

وبعبارة أُخرى: إنّما نهى عليه السلام عن تفهّم كلامه على نحو ما يتفهّم به كلام غيره وإن كان هذا النحو من التفهّم ربما صادف الواقع، والدليل على ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم في الرواية الأُخرى: «**من تكلّم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ**» فإنَّ الحكم بالخطأ مع فرض الإصابة ليس إلاّ لكون الخطأ في الطريق.

والمحصل: إنَّ المنهي عنه إنّما هو الاستقلال في تفسير القرآن واعتماد المفسر على نفسه من غير رجوع إلى غيره، ولازمه وجوب الاستمداد من الغير بالرجوع إليه، وهذا الغير لا محالة إمّا هو الكتاب أو السنة، وكونه هو السنّة ينافي القرآن و نفس السنة الآمرة بالرجوع إليه وعرض الاخبار عليه، فلا يبقى للرجوع إليه والاستمداد منه في تفسير القرآن إلاّ نفس القرآن[1].

ومع أنَّه فَصَّل الكلام في القسم الثاني من التفسير بالرأي ـ لم تفته الإشارة إلى القسم الاوّل في بعض كلماته قال:

يعرض المفسر الآية على ما توصل إليه العلم أو الفلسفة من نظريات أو فرضيات مقطوع أو مظنون بهما ظناً راجحاً...

نموذج لكل من القسمين

ثمّ إنّ تأويلات الباطنية أو المتصوفة كلّها من قبيل القسم الأوّل، وسيوافيك البحث عنها في موضعها، ولتسليط الضوء نذكر مثالاً:

أثبتت الأُصول الفلسفية أنَّ الأصلَ هو الوجود وأنَّ الماهية أمر انتزاعي من حدّ الوجود والمنسوب إلى الجاعل هو الوجود، غير أن تنزل الوجود لا ينفك عن عروض الحدود، فالصادر من الله سبحانه هو الوجود غير المحدّد المنبسط على الماهيات.

(١) الميزان: ٣ / ٧٦ ـ ٧٧.

هذا ما أثبتته الأُصول الفلسفية، ثمّ إنّ العرفاء يدعمون تلك النظرية بالآية التالية: يقول سبحانه: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلى ربّكَ كَيْفَ مَدَّ الظلَّ وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكناً ثُمَّ جَعَلنا الشمس عليه دَليلاً**﴾[1].

ويفسرون مدّ الظل ببسط الوجود على الماهيات، حتّى أنَّ بعض المشايخ من العرفاء كان يدّعي أنَّ دلالة الآية على هذا المعنى أمر بديهي، فقد نظر العارف إلى القرآن لا بنظر الاهتداء بل بنظر ما يدعم عقيدته. مع أنّ الآية أجنبية عمّا رامه، فإنَّ الآية و ما بعدها بصدد بيان آياته سبحانه الكونية من جعل الليل لباساً والنوم سباتاً والنهار نشوراً، وإرسال الرياح بشرى بين يدي رحمته، إلى غير ذلك من الآيات، فأي صلة لها بالوجود المنبسط على الماهيات؟!

ومن القسم الثاني، أعني: تفسير القرآن من غير استناد إلى أصل صحيح، بل اعتماداً على ظاهر الآية من دون الوغول فيها بالأساليب المعهودة، يقول سبحانه: ﴿**وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا**﴾. [2]

إنّ من يقتنع في تفسير القرآن بالقواعد العربية مع غض النظر عن سائر الأُصول ربما يجعل مبصرة وصفاً للناقة فيصف الناقة بالإبصار مع أنّها وصف لموصوف محذوف أي: «**وجعلنا الناقة آية مبصرة**» فالآية من قبيل الاختصار بحذف الموصوف.

الاجتهاد في فهم القرآن غير التفسير بالرأي

ثمّ إنّ المحظور هو التفسير بالرأي على ما عرفت، وأمّا السعي وبذل الجهد في فهم مقاصد الآيات ومراميها عن الطرق المألوفة بين العلماء خلفاً عن سلف فليس بمحظور بل هو ممدوح، بل لا محيص عنه في فهم القرآن الكريم.

فإنّ ما يهتدي إليه المفسر بعد التفكّر والتأمّل في مفردات الآية وجملها وسياقها

(١) سورة الفرقان، الآية: ٤٥.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٥٩.

ونظائرها من الآيات إذا كان له صلة لها فهو تفسير مقبول ولا صلة له بالتفسير بالرأي، وإذا كانت الآية ممّا تتضمن حكماً فقهياً يرجع في فهم الموضوع وشرائطه وجزئياته وموانعه إلى الروايات والأخبار المأثورة، ثمّ يتمسك في موارد الشك في اعتبار شيء، أو خروج فرد عن تحت الدليل بإطلاقها أو عمومها فلا يعد ذلك تفسيراً بالرأي بل اجتهاداً معقولاً، مقبولاً في فهم الآية.

ولعلّ كون القرآن كتاب القرون والأجيال لا تنقضي عجائبه يلازم قبول هذا النوع من التفسير الاجتهادي، ولأجل ذلك لم يزل كتابُ الله طريّاً في غضون الأجيال لم يندرس ولم يطرأ عليه الاندراس، بل هو طريّ ما دامت السماوات والأرض، ولازم ذلك وجود معارف وحقائق في القرآن يهتدي إليها الإنسان بالتعمّق في دلالاته اللفظية: المطابقية والتضمنية والالتزامية، وإن كان السلف في الأعصار الماضية غافلين عن هذه المعاني، ولعلّه إلى ذلك يشير الصادق عليه السلام في جواب من سأله أنّه ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس إلاّ غضاضة بقوله: «**لأنّ الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان، ولا لناس دون ناس، وهو في كلّ زمان جديد، وعند كلّ قوم غض إلى يوم القيامة**».[1]

وبالجملة فإيصاد هذا الباب في وجه المفسرين، يوجب وقف الحركة العلمية في فهم الكتاب العزيز، وبالتالي يكون القرآن كسائر الكتب محدود المعنى ومقصور المراد لا يحتاج إلى تداوم البحث وتضافره.

ولأجل إعطاء نموذج من الاجتهاد الصحيح في فهم القرآن نذكر اجتهاد الإمام أبي الحسن الهادي عليه السلام في تفسير الآية.

روى ابن شهر آشوب في مناقبه، قال:

قُدِّم إلى المتوكل رجل نصراني فجر بامرأة مسلمة، فأراد أن يقيم عليه الحد، فأسلم،

(١) بحار الأنوار: ٩٢/١٥، باب فضل القرآن، الحديث ٨

فقال يحيى بن أكثم: الإيمان يمحو ما قبله، و قال بعضهم: يضرب ثلاثة حدود، فكتب المتوكل إلى الإمام الهادي عليه السلام يسأله، فلما قرأ الكتاب، كتب: «**يضرب حتى يموت**».

فأنكر الفقهاء ذلك، فكتب إليه يسأله عن العلة، فكتب:

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾[١] فأمر به المتوكل فضرب حتى مات.[٢]

فالآية تدلّ بوضوح على أنّ الإيمان لدفع البأس، غير نافع في دفعه وعليه جرت سنة الله سبحانه، فليكن المقام من صغريات تلك الكبرى.

خلاصة

تظافرت الروايات عن النهي عن التفسير بالرأي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام .

عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار**».

اختلف في تحديد التفسير بالرأي على أقوال:

منها: أنَّ التفسير بالرأي هو تفسير آي القرآن الذي لا يدرك علمه إلا بنص بيان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كآيات الفرائض حيث إنَّ الأجزاء والشرائط والموانع في الصلاة والحج والزكاة وغيرهم رهن بيان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، كما عبّر الطبري، وهذا ما يظهر من السيد الخوئي قدس سره احتمال ذلك المعنى.

منها: أن يتوخى من تفسير القرآن دعم عقيدته ورأيه المُسبق حتى يحتج بالآية على الخصم أو يبرر به عمله.

(١) سورة غافر، الآية: ٨٤ ـ ٨٥.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ٤ / ٤٠٣ ـ ٥٠٥.

منها: الاستبداد بالرأي في تفسير القرآن من دون أن يقتفي الأسلوب الصحيح في تفسير القرآن وهذا ما يؤيده السيد الطباطبائي قدس سره.

فالتفسير بالرأي المنهي عنه أمر راجع إلى طريق الكشف دون المكشوف، والدليل على ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ**» فإنَّ الحكم بالخطأ مع فرض الإجابة ليس إلا لكون الخطأ في الطريق.

والمحصل: أنَّ المنهى عنه إنما هو الاستقلال في تفسير القرآن واعتماد المفسّر على نفسه من غير رجوع إلى غيره، ولازمه وجوب الاستمداد من الغير بالرجوع إليه، وهذا الغير لا محالة إما هو الكتاب أو السنة.

وأما السعي وبذل الجهد في فهم مقاصد الآيات ومراميها عن الطرق المألوفة بين العلماء خلفاً عن سلف فليس بمحظور بل هو ممدوح، بل لا محيص عنه في فهم القرآن الكريم.

المناهج التفسيرية

المنهج الأول: التفسير بالعقل

المنهج الثاني: التفسير بالنقل

التفسير بالعقل

وصوره:

١ – التفسير بالعقل الصريح الفطري

٢ – التفسير على ضوء المدارس الكلامية

٣ – التفسير على ضوء السنن الاجتماعية

٤ – التفسير على ضوء العلم الحديث

٥ – التفسير حسب تأويلات الباطنية

٦ – التفسير حسب تأويلات الصوفية

الدرس الخامس

إيضاح

المنهج التفسيري غير الاهتمام التفسيري

وقبل الخوض في استعراض المناهج التي يغلب عليها الطابَع العقلي أو النقلي، نذكر نكتة في غاية الأهمية، وهي ضرورة التمييز بين موضوعين: هما:

١. المنهج التفسيري.

٢. الاهتمام التفسيري.

فنقول: إنّ هاهنا بحثين:

الأوّل: البحث عن المنهج التفسيري لكل مفسّر، وهو تبيين طريقة كل مفسر في تفسير القرآن الكريم، والأداة والوسيلة التي يعتمد عليها لكشف الستر عن وجه الآية أو الآيات؟ فهل يأخذ العقلَ أداةً للتفسير أو النقل؟ وعلى الثاني فهل يعتمد في تفسير القرآن على نفس القرآن، أو على السنّة، أو على كليهما، أو غيرهما؟

وبالجملة ما يتخذه مفتاحاً لرفع إبهام الآيات، وهذا هو ما نسمّيه المنهج في تفسير القرآن في كتابنا هذا.

الثاني: البحث عن الاتجاهات والاهتمامات التفسيرية، والمراد منها المباحث التي يهتم بها المفسّر في تفسيره مهما كان منهجه وطريقته في تفسير الآيات، مثلاً تارة يتجه إلى إيضاح المادة القرآنية من حيث اللغة، وأُخرى إلى صورتها العارضة عليها من حيث الإعراب والبناء، وثالثة يتجه إلى الجانب البلاغي، ورابعة يعتني بآيات الأحكام، وخامسة يصبّ اهتمامه على الجانب التاريخي والقصصي،

وسادسة يهتم بالأبحاث الأخلاقية، وسابعة يهتم بالأبحاث الاجتماعية، وثامنة يهتم بالآيات الباحثة عن الكون وعالم الطبيعة، وتاسعة يهتم بمعارف القرآن وآياته الاعتقادية الباقية عن المبدأ والمعاد وغيرهما، وعاشرة بالجميع حسبما أُوتي من المقدرة.

ولا شك أنّ التفاسير مختلفة من حيث الاتجاه والاهتمام، إمّا لاختلاف أذواق المفسرين وكفاءاتهم ومؤهّلاتهم، أو لاختلاف بيئاتهم وظروفهم، أو غير ذلك من العوامل التي تسوق المفسر إلى صبِّ اهتمامه إلى جانب من الجوانب المذكورة أو غيرها، ولكن البحث عن هذا لايمتّ بالبحث عن المنهج التفسيري للمفسّر بصلة، فمن تصور أنّ البحث عن اختلاف الاهتمامات والاتجاهات راجع إلى البحث عن المنهج التفسيري فقد تسامح.

وإن شئت أن تفرق بين البحثين فنأتي بكلمة موجزة، وهي أنّ البحث في المناهج بحث عن الطريق والأُسلوب، والبحث في الاهتمامات بحث عن الأغراض والأهداف التي يتوخّاها المفسر، وتكون علة غائية لقيامه بالتأليف في مجال القرآن.

أنواع المناهج التفسيرية

إذا تبيّن الفرق بين البحثين فنقول: إنّ التقسيم الدارج في تبيين المناهج هو أنّ المفسّر إمّا يعتمد في رفع الستر عن وجه الآية على الدليل العقلي أو على الدليل النقلي، ونحن أيضاً نقتفي في هذا البحث أثر هذا التقسيم لكن بتبسيط في الكلام.

١ - تفسير القرآن في ظل العقل الصريح

قد يطلق التفسير بالعقل، ويراد به التفسير بغير النقل، سواء أكان التفسير بالعقل الفطري، أم بالقواعد الدارجة في المدارس الكلامية، أم بتأويلات الباطنية، أم الصوفية، أم التفسير حسب العلوم الحديثة.

والتفسير بالعقل بهذا المعنى يعم جميع هذا النوع من التفسير. وبهذا صار أيضاً

ملاكاً لتقسيم المناهج التفسيرية إلى المنهج العقلي والنقلي.

وقد يطلق ويراد به تفسير الآيات من منظار العقل الفطري والعقل الصريح والبراهين المشرقة غير الملتوية الواضحة لكلّ أرباب العقول، وهذا هو المراد في المقام، وهو بهذا المعنى قسم من المناهج التفسيرية العقلية فلاحظ[1].

وبما أنَّ العقل الصريح يقسم إلى عقل نظري [2] وإلى عقل عملي، فالآيات الواردة حول العقائد والمعارف تفسر في ظل العقل النظري، كما أنّ الآيات الواردة حول الحقوق والأخلاق والاجتماع تفسر بما هو المسلم عند العقل العملي.

ولأجل إيضاح هذا النوع من التفسير بالعقل الذي يفارق التفسير على سائر المعايير العقلية كما أشرنا إليها، نذكر نماذج في مجالي العقل النظري والعقل العملي، ولنقدّم الكلام في الأوّل على الثاني.

واحد لا ثاني له

يقول سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِير﴾ [3] فالآية تنفي أن يكون له سبحانه أيُّ مثل وندّ، وفي سورة أخرى يقول: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَد﴾[4] وهذه عقيدة صريحة إسلامية، يمكن أن يفسر في ضوء الحكم العقلي كالتالي.

أ. صرف الوجود لا يتعدّد

إذا كان الموجود منزهاً عن كلّ حد وقيد بحيث ليس له واقعية سوى الوجود المطلق فهو لا يتكرر ولا يتعدد، بمعنى أنَّه لا تتعقل له الاثنينية والكثرة، لأنّ ما فرضته ثانياً بحكم أنَّه أيضاً منزه عن كلّ قيد وحدّ وخليط يكون مثل الأوّل فلا يتميز ولا يتشخص، وقد فسّر الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام الآية على ضوء هذا الحكم العقلي.

(١) والعقل بالمعنى الأوّل مقسم للمناهج الستة، وبالمعنى الثاني قسم منه.

(٢) المراد من العقل النظري: إدراك ما يجب أن يعلم، كحاجة الممكن إلى العلة ؛ والمراد من العقل العملي، إدراك ما يجب أن يعمل ويطبَّق على الحياة، كقولنا: العدل حسن والظلم قبيح.

(٣) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٤) سورة الاخلاص، الآية: ٤.

روى الصدوق أنّ أعرابياً قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين أتقول: إنّ الله واحد، قال فحمل الناس عليه، وقالوا: يا أعرابي أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسم القلب، فقال أمير المؤمنين: «**دعوه، فإنَّ الذي يريده الأعرابي هو الذي نريده من القوم**»... ثمّ قال شارحاً ما سأله عنه الأعرابي: «**وقول القائل واحد، يقصد به باب الأعداد، فهذا ما لا يجوز، لأنّ ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد، أما ترى أنّه كفر من قال: ثالث ثلاثة**».

ثمّ قال: «**معنى هو واحد: أنَّه ليس له في الأشياء شِبْه، كذلك ربّنا، و قول القائل إنّه عزّ وجلّ أحديُّ المعنى يعني به أنّه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم، كذلك ربّنا عزّ وجلّ**». (١)

فالإمام عليه السلام لم يكتف ببيان المقصود من وصفه سبحانه بأنّه واحد، بل أشار إلى معنى آخر من معاني توحيده وهو كونه أحديّ الذات، الذي يهدف إلى كونه بسيطاً لا جزء له في الخارج والذهن. و التوحيد بهذا المعنى هو القسم الثاني من التوحيد الذاتي المبحوث عنه في محلّه.

ب. التعدّد يستلزم التركيب

لو كان هناك واجب وجود آخر لشارك الواجبان في كونهما واجبي الوجود، ولابدّ من تميز أحدهما عن الآخر بشيء وراء ذلك الأمر المشترك، كما هو الحال في كلّ مثلين، وذلك يستلزم تركب كلّ منهما من شيئين: أحدهما يرجع إلى ما به الاشتراك، والآخر إلى ما به الامتياز، والمركب بما أنّه محتاج إلى أجزائه لا يكون موصوفاً بوجوب الوجود، بل يكون ـ لأجل الحاجة ـ ممكناً وهو خلاف الغرض.

وباختصار لو كان في الوجود واجبان للزم إمكانهما وذلك أنَّهما يشتركان في وجوب الوجود فإن لم يتميّزا لم تحصل الاثنينية، وإن تميّزا لزم تركب كلّ واحد منهما ممّا به المشاركة وما به الممايزة، وكلّ مركب ممكن فيكونان ممكنين، وهذا خلاف الفرض.

(١) توحيد الصدوق: ٨٣-٨٤.

ج. الوجود اللامتناهي لا يقبل التعدّد

هذا البرهان مؤلّف من صغرى و كبرى والنتيجة هو وحدة الواجب وعدم إمكان تعدّده، وإليك صورة القياس حتى نبرهن على كلّ من صغراه وكبراه.

وجود الواجب غير متناه.

وكلّ غير متناه واحد لا يقبل التعدّد.

فالنتيجة وجود الواجب واحد لا يقبل التعدّد.

وإليك البرهنة على كلّ من المقدّمتين.

أمّا الصغرى: فإنَّ محدودية الموجود، ملازمةٌ لتلبّسه بالعدم. ولأجل تقريب هذا المعنى لاحظ الكتاب الموضوع بحجم خاص، فإنَّك إذا نظرت إلى أيّ طرف من أطرافه ترى أنّه ينتهي إليه وينعدم بعده، ولا فرق في ذلك بين صغير الموجودات وكبيرها، حتّى أنّ جبال الهملايا مع عظمتها محدودة لا نرى أي أثر للجبل بعد حدّه. وهذه خصيصة كلّ موجود متناه زماناً أو مكاناً أو غير ذلك، فالمحدودية والتلبس بالعدم متلازمان.

وبتقرير آخر: إنَّ عوامل المحدودية تتمحور في الأُمور التالية:

١. كون الشيء محدوداً بالماهية ومزدوجاً بها، فإنَّها حد وجود الشيء والوجود المطلق بلا ماهية غير محدد ولا مقيد وإنّما يتحدّد بالماهية.

٢. كون الشيء واقعاً في إطار الزمان، فهذا الكم المتصل (الزمان) يحدّد وجود الشيء في زمان دون آخر.

٣. كون الشيء في حيّز المكان، وهو أيضاً يُحدّد وجود الشيء ويخصّه بمكان دون آخر.

وأمّا الكبرى فهي واضحة بأدنى تأمل، وذلك لأنّ فرض تعدّد اللا متناهي يستلزم أن نعتبر كلّ واحد منهما متناهياً من بعض الجهات حتى يصحّ لنا أن نقول هذا غير ذاك،

ولا يقال هذا إلاّ إذا كان كلّ واحد متميزاً عن الآخر، والتميّز يستلزم أن لا يوجد الأول حيث يوجد الثاني، وكذا العكس. وهذه هي «المحدودية» وعين «التناهي»، والمفروض أنَّه سبحانه غير محدود ولا متناه.

فيستنتج من هاتين المقدّمتين أنَّ وجود الواجب واحد لا يقبل التعدّد.

ومن لطيف القول ما نجده في كلامه سبحانه حيث إنّه بعد ما يصف نفسه بالوحدانية يعقبه بوصف القهارية ويقول ﴿الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[1] ، وما ذلك إلاّ لأنّ المحدود المتناهي مقهور للحدود والقيود الحاكمة عليه، فإذا كان قاهراً من كلّ الجهات لم تتحكم فيه الحدود، فكأنّ اللا محدودية تلازم وصف القاهرية وقد عرفت أنّ ما لا حدّ له يكون واحداً لا يقبل التعدّد، فقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ من قبيل ذكر الشيء مع البيّنة والبرهان.

ـ لا مدبر للكون إلاّ اللّه

إنَّ القرآن يستدلّ على وحدة المدبر ببرهان شيق، ويقول: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[2] والمراد من الإله في المقام هو الإله الخالق رداً للثنوية الذين يظنون أنَّ خالق الخير غير خالق الشر أو النصرانية حيث ذهبت إلى التثليث.

وحاصل البرهان: إذا افترضنا أنَّ للكون خالقين وأنَّ العالم مخلوق لإلهين، فإنّه لابدّ أن نقول ـ و بحكم كونهما اثنين ـ إنّهما يختلفان عن بعض في جهة أو جهات، وإلاّ لما صحّت الاثنينية والتعدّد أي لما صحّ ـ حينئذ ـ أن يكونا اثنين دون أن يكون بينهما أي نوع من الاختلاف.

ومن المعلوم أنّ الاختلاف في الذات سبب للاختلاف في طريقة التدبير والإرادة بين المختلفين ذاتاً.

(١) سورة الرعد، الآية: ١٩.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

فإذا كان تدبير العالم العلوي ـ مثلاً ـ من تدبير واحد من الإلهين وتدبير العالم السفلي من تدبير إله آخر، فإنَّ من الحتمي أن ينفصم الترابط بين نظامي العالمين ويزول الارتباط بينهما، لأنّه من المستحيل تدبير موجود ذي أجزاء منسجمة بتدبيرين متنافيين متضادين.

وينتج من ذلك التفكك بين جزئي العالم، وبالتالي فساد الكون بأسره من سماوات وأرض وما بينهما، لأنّا جميعاً نعلم بأنّ بقاء النظام الكوني ناشئ من الارتباط الحاكم على أجزاء المنظومة الشمسية بحيث لو فقد هذا الارتباط على أثر الاختلاف في التدبير ـ مثل أن تختل قوتا الجذب والدفع ـ لتعرّض الكون بأسره للخلل ولم يبق للكون وجود ولا أثر.

هذا هو البرهان المشرق الذي يفسر الآية بالعقل الصريح.

إلى هنا تبيّن كيفية تفسير الآية بالعقل الصريح، وقد أتينا بنموذجين من هذه المقولة، أعني:

أ. واحد لا ثاني له.

ب. ليس للعالم مدبّر سواه.

فالنموذجان من قبيل تفسير الآية بالعقل الصريح النظري في مقابل التفسير بالعقل الصريح العملي الذي سنوضحه تالياً.

القرآن والعقل العملي

قسّم الحكماء العقل إلى عقل نظري وعقل عملي، والمراد هو تقسيم المدرك إلى هذين القسمين، وإلاّ فالعقل المدرِك واحد بجوهره ووجوده، فما يدركه لو كان من قبيل ما يجب أن يُعلم ويُدرك فهو عقل نظري كما عرفت من الأمثلة السابقة حيث أدركنا أنَّ الله سبحانه واحد لا نظير له، وأنَّه مدبّر لا مدبّر سواه.

وأمّا ما يدركه العقل ممّا يجب أن يعمل ويطبق على الحياة فيعبر عنه بالعقل العملي أي المدرَك الذي يجب أن يعمل به في نظر العقل وهذا ما يعبر عنه بالتحسين والتقبيح العقليّين الذي له فروع وشؤون في نظر العقل.

فهناك من يفسر القرآن الكريم بالعقل الصريح العملي، ونشير إلى نموذجين من هذه المقولة.

تنزيهه سبحانه عن العبث

إذا قلنا بالتحسين والتقبيح العقليين وأنَّ العقل يدرك لزوم ما يحسنه العقل والاجتناب على ما يقبحه يفسر بذلك لفيف من الآيات.

أ. أنَّه سبحانه يصف فعله بالنزاهة عن العبث واللغو، ويقول:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنّكُمْ إِلينا لا ترجعُون﴾.[1]

﴿وَما خَلَقْنا السَّماوات وَالأَرْض وَما بَيْنَهُما لاعبين﴾.[2]

﴿وَما خَلَقْنَا السَّماء وَالأَرْض وَما بَيْنَهُما باطِلاً ذلِكَ ظَنُّ الّذينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذينَ كَفَرُوا مِنَ النّار﴾.[3]

﴿وَما خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْس إِلاّ لِيَعْبُدُون﴾[4].

وعلى ضوء ذلك فأفعاله سبحانه لا تنفك عن الأغراض، لكن الغرض غاية للفعل لا للفاعل، وبذلك يعلم جواب السؤال التالي:

لو كان فعله تعالى نابعاً عن الغرض لكان ناقصاً بذاته، مستكملاً بتحصيل ذلك الغرض، لأنّه لا يصلح غرضاً للفاعل إلاّ ما هو أصلح له من عدمه وهو معنى الاكتمال.

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.
(٢) سورة الدخان، الآية: ٣٨.
(٣) سورة ص، الآية: ٢٧.
(٤) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

والجواب: إنَّ السائلَ خلط بين الغرض الراجع إلى الفاعل والغرض الراجع إلى فعله، فالاستكمال موجود في الأوّل دون الثاني، والقائل بأنَّ أفعاله سبحانه ليست منفكّة عن الغايات والدواعي إنّما يعني بها الثاني، أي كونه غرضاً للفعل دون الأوّل، فإنَّ الغرض بالمعنى الأوّل ينافي كونه غنياً بالذات، والغرض بالمعنى الثاني يوجب خروج فعله عن كونه عبثاً ولغواً وكونه سبحانه عابثاً ولاغياً، فالجمع بين كونه غنياً غير محتاج إليه وكونه حكيماً منزّهاً عن العبث واللغو يحصل باشتمال أفعاله على مصالح وحكم ترجع إلى العباد والنظام لا إلى وجوده وذاته.

نعم ربما يمكن أن يقال أنَّ هذا النوع من التفسير يرجع إلى تفسير الآية في ضوء المدارس الكلامية مع أنّ البحث في غيره.

والجواب أنَّ المقصود من المدارس الكلامية هو الأحكام العقلية غير الواضحة على أكثر العقول، وأمّا الظاهر عليه فهو تفسير بالعقل الصريح، والتحسين والتقبيح من هذا النوع من الإدراكات العقلية وإنَّ استخدمته العدلية في مدارسهم الكلامية.

ب. اللّه عادل لا يجور

إنّه سبحانه يصف نفسه بكونه قائماً بالقسط، يقول: ﴿**شَهِدَ الله أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ وَالْمَلائِكَة وَأُولُوا العِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ**﴾. (١)

وكما شهد على ذاته بالقيام بالقسط، عرف الغاية من بعثة الأنبياء بإقامة القسط بين الناس.

قال سبحانه: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلنا بِالبَيّنات وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الكِتاب وَالمِيزان لِيَقُومَ النّاس بِالقِسْطِ**﴾. (٢)

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٥.

كما صرح بأنَّ القسط هو الركن الأساس في محاسبة العباد يوم القيامة، إذ يقول سبحانه: ﴿وَنَضَعُ المَوازينَ القِسْطِ لِيُومَ القِيامَة فَلا تُظلمُ نَفسٌ شَيْئاً﴾.[1]

وما في هذه الآيات وغيرها إرشادات إلى ما يدركه العقل من صميم ذاته، بأنّ العدل كمال لكلّ موجود حي مدرك مختار، وأنَّه يجب أن يوصف الله تعالى به في أفعاله في الدنيا والآخرة، ويجب أن يقوم سفراؤه به.

وبعبارة أُخرى: الله سبحانه عادل، لأنَّ الظلم قبيح، ولا يصدر القبيح من الحكيم، فلا يصدر الظلم من الله سبحانه.

هذا نموذج ثان لتفسير الآيات بالعقل العملي الصريح، وعليك الإمعان في الآيات التي ترجع إلى العقائد، كي تستخرج منها ما يرجع إلى العقل النظري وما يرجع إلى العقل العملي وتفسيرها بأحدهما في نهاية الأمر.

بَقِيَتْ هنا أُمور:

الأوّل: إنَّه سبحانه يصف نفسه في سورة الحشر بصفات لا يمكن تفسيرها إلاّ في ضوء العقل الصريح، فمن رفض العقل في تفسير القرآن الكريم يعرقل خطاه في تفسير هذا القسم من الآيات.

يقول سبحانه: ﴿هُوَ الّذي لا إلهَ إلاّ هُوَ عالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهادةِ هُوَ الرّحمنُ الرَّحيم﴾.[2]

﴿هُوَ اللهُ الّذي لا إلهَ إلاّ هُوَ المَلكُ الْقُدُوس السَّلام المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيزُ الجَبّار المُتَكَبِّر سُبحانَ الله عَمّا يُشْرِكُونَ﴾.[3]

﴿هُوَ اللهُ الخالِقُ البارئُ المُصَوِّر لَهُ الأَسماءُ الحُسْنى يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماوات وَالأَرض وَهُوَ العَزيزُ الحَكيم﴾.[4]

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.
(٢) سورة الحشر، الآيات: ٢٢-٢٤.
(٣) سورة الحشر، الآيات: ٢٢-٢٤.
(٤) سورة الحشر، الآيات: ٢٢-٢٤.

وفي هذا القسم من التفسير لا يهتم المفسر في إخضاع الآيات لمنهج عقلي كلامي خاص، وإنّما هو من قبيل الاستضاءة بهذه الأُصول الثابتة عند العقل في تحصيل الآيات.

الثاني: إنَّ من اتّخذ العقل أداة وحيدة للتفسير يجب عليه الاقتصار على تفسير الآيات الراجعة إلى العقائد والمعارف وشيئاً مما يرجع إلى الأخلاق والمسائل الاجتماعية ولا يتمكن من تفسير آيات الأحكام والقصص والمغازي وما أشبهها.

الثالث: السيد نور الدين الحسين العراقي (المتوفّى عام ١٣٤١ هـ. ق) صاحب كتاب «**القرآن والعقل**» و قد طبع في أجزاء ثلاثة، فقد قام بتفسير القرآن بما يوحي إليه عقله الشخصي ويدركه بوجدانه، وإنّما أسمى كتابه بهذا لأنّه لم يكن حين تأليف التفسير كتاب سوى تفسير الجلالين وقد ألّفه وهو في ساحات الحروب ينتقل من نقطة إلى أُخرى.

وعلى كلّ تقدير فليس ما ألّفه على غرار ما ذكرنا من التفسير بالعقل السليم، وإليك نماذج من بعض تفسيراته:

١. **قال في تفسير قوله سبحانه جواباً لطلب موسى عليه السلام الرؤية**: قال: ﴿**وَلَكِن انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا**﴾.(١)

٢. **قال**: وقد يقال إنَّ كلمة الشرط «**فإن استقر**» تدلّ على سببية الشرط للجزاء، وأي سببية بين بقاء جبل ورؤية موسى عليه السلام مع كون الجبل من الجمادات، وموسى عليه السلام إنساناً كاملاً ؟!

فأجاب بقوله: لو كان المراد بالرؤية الرؤية، البصرية الجسمية، فالربط بين

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣٤.

الشرط والجزاء يكون حاصلاً، فإنَّ الجسم الصلب العظيم غير الشاعر بالتجلّي، إذا لم يبق وصار مندكاً، فالعين الباصرة التي هي مركبة من العناصر وفي منتهى اللطافة تتلاشى بمشاهدة التجلّي مع كونها ذي حس بالأولوية القطعية. [١]

٣. يقول في تفسير قوله سبحانه: ﴿فَلَمّا ذَهَبَ عَنْ إبْراهيمَ الرَّوْعُ وَجاءَتْهُ الْبُشْرى يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوط * إنّ إبراهيمَ لَحَليمٌ أوّاهٌ مُنيب﴾. [٢]

كان إبراهيم يجادل رسل الله تبارك وتعالى في إهلاك قوم لوط حيث استدعى إمهالهم لعلّهم يرجعون لكن إبراهيم خوطب بترك الجدال وقال: ﴿يا إبْراهيمُ أعْرِضْ عَنْ هذا إنَّهُ قَدْ جاءَأَمْرُ رَبِّكَ وَإنَّهُمْ آتيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدود﴾[٣].

أمر سبحانه إبراهيم بالإعراض عن الشفاعة، وذلك لأنّ الشفاعة فرع وجود الاستعداد في المشفوع له لا بعد شهود زوال الاستعداد للكمال، وصيرورة أخلاقهم الفاسدة ملكات راسخة غير زائلة. [٤]

٤. **يقول في تفسير قوله سبحانه:** ﴿فَلَمّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَأَمْطَرنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيل منضُود﴾.[٥]

قال في وجه رجوع العالي إلى السافل، والسافل إلى العالي: إنّ المورد كبعض الزلازل العظيمة التي تنشق الأرض بسببها، فإذا انهدمَت تقع العوالي وتصل إلى المنشقات وتصير السفلى، والأسفل يقع في البعد ويصير أعلا.[٦]

(١) القرآن والعقل: ٢/ ٨٣.
(٢) سورة هود، الآيات: ٧٤-٧٥ .
(٣) سورة هود، الآية: ٧٦.
(٤) القرآن والعقل: ٣٢٩/٢.
(٥) سورة هود، الآية: ٨٢.
(٦) القرآن والعقل: ٣٣٣/٢ .

٥ . يقول في تفسير قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ كان في يُوسُفَ وَإِخوَته آياتٌ لِلسّائلين﴾.[١]

ومن تلك الآيات الكذب البيّن حيث أَتَوْا بالقميص صحيحاً و في الوقت نفسه قالوا افترسه الذئب مع أنّهما متناقضان.

ثمّ يقول: ونظير ذلك أنَّ قريشاً يتّهمون النبي بأنّه مسحور أو مجنون مع ما يرون في النبي من العقل والذكاء، والبرهنة والاستدلال، ومع ذلك يخفونه ويظهرون جنونه.[٢]

خلاصة

الصورة الأولى من المناهج التفسيرية العقلية:

(أ) تفسير القرآن في ظل العقل الصريح.

المراد به في المقام هو تفسير الآيات من منظار العقل الفطري والعقل الصريح والبراهين المشرقة غير الملتوية الواضحة لكل أرباب العقول.

فمثلاً، نفسر من خلال هذا المنهج قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْله شَيْءٌ وَهُوَ السَّميعُ البَصيرُ﴾ التي تنفي أي مثل وند لله تعالى أو كما في قوله عزّ وجلّ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ فهو واحد لا ثاني له، فصرف الوجود لا يتعدد، فإذا كان الموجود منزهاً عن كل حد وقيد بحيث ليس له واقعية سوى الوجود المطلق فهو لا يتكرر ولا يتعدد. فالتعدد يستلزم التركيب، وكل مركب ممكن وهذا خلاف الفرض.

البرهان على أن الوجود اللامتناهي لا يقبل التعدد هو:

الصغرى: وجود الواجب غير متناه.

(١) سورة يوسف، الآية: ٧.

(٢) القرآن والعقل: ٢/٣٦٧ .

الكبرى: وكل غير متناه واحد لا يقبل التعدد.

فالنتيجة: وجود الواجب واحد لا يقبل التعدد.

ب: قسم الحكماء العقل إلى عقل نظري وعقل عملي، فما يدركه لو كان من قبيل ما يجب أن يعلم ويُدرك فهو عقل نظري كما عرفت من الأمثلة السابقة، أن الله واحد لا نظير له، وأنه مدبّر لا مدبّر سواه وغير ذلك من أنه فوق أن يُرى وأنه الأول والآخر والظاهر والباطن.

وأما ما يدركه العقل مما يجب أن يعمل فيعبّر عنه بالعقل العملي أي المدرك الذي يجب أن يعمل به في نظر العقل وهذا ما يعبر عنه بالتحسين والتقبيح العقليين.

وأن العقل يدرك لزوم ما يحسنه العقل والاجتناب عمّا يقبحه، يفسر بذلك عدد من الآيات.

منها قوله سبحانه ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ**﴾ وقوله تعالى:﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ وغيرها والمقصود من المدارس الكلامية هو الأحكام العقلية غير الواضحة على أكثر العقول، وأما الظاهر عليه فهو تفسير بالعقل الصريح، والتحسين والتقبيح من هذا النوع من الإدراكات العقلية.

الدرس السادس

٢ - تفسير القرآن على ضوء المدارس الكلامية

هذا هو القسم الثاني من تفسير القرآن بالعقل أي بغير الأثر المروي، والمراد من هذا القسم هو إخضاع الآيات للعقائد التي اعتنقها المفسر في مدرسته الكلامية، ونجد هذا اللون من التفسير بالعقل غالباً في تفاسير أصحاب المقالات: المعتزلة والأشاعرة، فإنَّ لهؤلاء عقائد خاصة في مجالات مختلفة، زعموها حقائق راهنة على ضوء الاستدلال، وفي مجال التفسير حملوا الآيات على معتقدهم، وإن كان ظاهر الآية يأباه ولا يتحمّله غير انّ هذا النمط من التفسير بالرأي والعقل، يختلف حسب بُعد المعتقد عن مدلول الآية، فربما يكون التفسير بعيداً عن الآية، ولكن تتحمّلها الآية بتصرف يسير، وربما يكون الأصل الكلامي بعيداً عن الآية غاية البعد بحيث لا تتحمّله الآية حتى بالتصرف الكثير فضلاً عن اليسير.

ولا يمكننا التوسع في هذا المضمار بل نقتصر على تفسير الآيات على ضوء المدرستين الكلاميتين المعتزلة والأشاعرة، فلنقدم البحث في الأُولى.

تفسير الآيات على ضوء مدرسة الاعتزال

أ ـ الشفاعة حطّ الذنوب أو رفع الدرجة

إنَّ الشفاعة لم تكن فكرة جديدة ابتكرها الإسلام وانفرد بها، بل كانت فكرة رائجة بين جميع أُمم العالم من قبلُ وخاصةً بين الوثنيّين واليهود. نعم إنّ الإسلام قد طرحها مهذَّبة من الخرافات، وممّا نُسِج حولها من الأوهام، ومن وقف على آراء اليهود والوثنيّين في أمر الشفاعة يقف على أنَّ الشفاعة الدارجة بينهم كانت مبنيّة على رجائهم لشفاعة أنبيائهم في حط الذنوب وغفران آثامهم، ولأجل هذا الاعتقاد

كانوا يقترفون المعاصي ويرتكبون الذنوب، تعويلاً على ذلك الرجاء، فالآيات النافية للشفاعة والمثبتة لها تحت شرائط خاصة كلها راجعة إلى الشفاعة بهذا المعنى فلو نُفِيَت فالمنفي هو هذا المعنى، ولو قُبِلت والمقبول هو هذا المعنى، والآيات الواردة في مجال الشفاعة على سبعة أنواع لا يصح تفسيرها إلاّ بتفسير بعضها ببعض، وتمييز القسم المردود منها عن المقبول.

ومع ذلك نرى أنّ المعتزلة يخصُّون آيات الشفاعة بأهل الطاعة دون العصاة ويرتكبون التأويل في موردها، وما هذا إلاّ للموقف الذي اتّخذوه في حقّ العصاة ومقترفي الذنوب، في أبحاثهم الكلامية، فقالوا بخلود أهل العصيان في النار إذا ماتوا بلا توبة.

قال القاضي عبد الجبار: إنّ شفاعة الفسّاق الذين ماتوا على الفسوق ولم يتوبوا، يتنزل منزلة الشفاعة لِمن قتلَ ولدَ غيره، وترصّد للآخر حتى يقتله، فكما أنّ ذلك يقبح، فكذلك هاهنا. [1]

والذي دفع القاضي إلى تصوير الشفاعة في حقّ المذنب بما جاء في المثال، هو اعتقاده الراسخ بالأصل الكلامي الذي يعدّ أصلاً من أُصول منهج الاعتزال (خلود العاصي ـ إذا مات بلا توبة في النار) وفي الوقت نفسه يعرب عن غفلته عن شروط الشفاعة، فإنَّ بعض الذنوب الكبيرة تقطع العلائق الإيمانية باللّه سبحانه كما تقطع الأواصر الروحية بالشفيع، فأمثال هؤلاء ـ العصاة ـ محرومون من الشفاعة، وقد وردت في الروايات الإسلامية شروط الشفاعة وحرمان طوائف منها.

ولو افترضنا صحة ما ذكره من التمثيل فحكمه بحرمان العصاة من الشفاعة اجتهاد في مقابل نصوص الآيات وإخضاع لها لمدرسته الفكرية.

يقول الزمخشري في تفسير قوله سبحانه: ﴿**أنفِقُوا مِمّا رَزَقنَاكُمْ مِن قَبْلِ أنْ يَأتِيَ يَومٌ لا بَيعٌ فِيه ولا خُلَّةٌ ولا شَفاعَة**﴾[2] ولا خُلَّة حتى يسامحكم أخلاّؤكم به، وإن أردتم أن

(١) شرح الأصول الخمسة / ٦٨٨.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٤.

يحطّ عنكم ما في ذمّتكم من الواجب لم تجدوا شفيعاً يشفع لكم في حط الواجبات، لأنّ الشفاعة ثمّة في زيادة الفضل لا غير[1].

يلاحظ عليه: أنّ الآية بصدد نفي الشفاعة بالمعنى الدارج بين اليهود والوثنيين لأجل أنّهم كفّار، وانقطاع صلتهم عن الله سبحانه، وبالتالي إثباتها في حقّ غيرهم بإذنه سبحانه ويقول في الآية التالية: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ**﴾ وأمّا أنَّ حقيقة الشفاعة زيادة الفضل لا حطّ الذنوب فهو تحميل للعقيدة على الآية، فلو استدلّ القائل بها على نفي الشفاعة بتاتاً لكان أولى من استدلاله على نفي الشفاعة للكفّار، وذلك لأنَّ المفروض أنَّ الشفاعة بمعنى زيادة الفضل لا حطُّ الذنوب، وهو لا يتصور في حقّ الكفّار لأنّهم لا يستحقون الثواب فضلاً عن زيادته.

ب: هل مرتكب الكبيرة يستحق المغفرة أو لا؟

اتفقت المعتزلة على أنّ مرتكب الكبيرة مخلّد في النار إذا مات بلا توبة [2] وفي ضوء ذلك التجأوا إلى تأويل كثير من الآيات الظاهرة في خلافه نذكر منها آيتين:

الأُولى: يقول سبحانه: ﴿**وإنّ ربَّكَ لَذُو مَغفِرة لِلنّاسِ عَلى ظُلمِهِمْ وإنَّ ربَّكَ لَشديدُ العِقاب**﴾. [3]

فالآية ظاهرة في أنّ مغفرة الربّ تشمل الناس في حال كونهم ظالمين، ومن المعلوم أنّ الآية راجعة إلى غير صورة التوبة وإلاّ لا يصح وصفهم بكونهم ظالمين، فلو أخذنا بظاهر الآية فهو يدلّ على عدم جواز الحكم القطعي بخلود مرتكب الكبيرة في النار إذا مات بلا توبة، لرجاء شمول مغفرة الربّ له، ولمّا كان ظاهر الآية مخالفاً للأصل الكلامي عند صاحب الكشاف، حاول تأويل الآية بقوله: فيه أوجه:

١ . أن يريد قوله «**على ظلمهم**» السيئات المكفَّرة، لمجتنب الكبائر.

---

(١) الكشاف: ٢٩١/١ في تفسير الآية رقم ٢٥٤ من سورة البقرة.
(٢) لاحظ أوائل المقالات: ١٤ ، وشرح الأصول الخمسة: ٦٥٩.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٦.

٢ . أو الكبائر بشرط التوبة.

٣ . أو يريد بالمغفرة الستر والإمهال.[١]

وأنت خبير بأنّ كل واحد من الاحتمالات مخالف لظاهر الآية أو صريحها.

الثانية: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾.[٢]

والآية واردة في حقّ غير التائب، لأنّ الشرك مغفور بالتوبة أيضاً، فيعود معنى الآية أنّ الله سبحانه يغفر ما دون الشرك لمن يشاء وإن مات بلا توبة، فتكون نتيجة ذلك عدم جواز الحكم القطعي بخلود مرتكب الكبائر في النار، ولمّا كان مفاد الآية مخالفاً لما هو المحرّر في المدرسة الكلامية للمعتزلة حاول صاحب الكشاف تأويل الآية فقال:

الوجه أن يكون الفعل المنفي والمثبت جميعاً موجهين بقوله تعالى: **﴿لِمَنْ يَشاءُ﴾** كأنّه قيل: «**إنّ الله لا يغفر لمن يشاء الشرك ويغفر لمن يشاء ما دون الشرك**» على أنّ المراد بالأوّل من لم يتب وبالثاني من تاب، نظير قولك: إنّ الأمير لا يبذل الدينار ويبذل القنطار لمن يشاء، تريد لا يبذل الدينار لمن لا يستأهله ويبذل القنطار لمن يستأهله.[٣]

يلاحظ عليه: أنَّ ما ذكره خلاف ظاهر الآية وقد ساقته إليه مدرسته الكلامية فنزّل الأوّل مورد عدم التوبة، والثاني موردها، حتى تتفق الآية ومعتقده.

كما أنَّه لا دلالة في الآية على تقييد الثاني بالتوبة، لأنّه تفكيك بين الجملتين بلا دليل، بل هما ناظرتان إلى صورة واحدة وهي صورة عدم اقترانهما بالتوبة فلا يغفر الشرك لعظم الذنب ويغفر ما دونه.

ومن هذا القبيل أيضاً، تفسيره لقوله سبحانه: **﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمداً فَجَزاؤُهُ**

(١) الكشاف: ١٥٨/٢ .
(٢) سورة النساء، الآية: ٤٨.
(٣) الكشاف: ١/ ٤٠١ في تفسير الآية المذكورة.

جَهَنَّم خالِداً فِيها وَغَضب الله عَلَيْهِ وَلَعَنهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظيماً﴾.[1]

فقد فسره الزمخشري على ضوء مذهب الاعتزال من خلود أصحاب الكبائر ـ إذا ماتوا بلا توبة ـ في النار، وجعل هذه الآية من أدلة عقيدته، فقال: هذه الآية فيها من التهديد والإيعاد، والإبراق والإرعاد، أمر عظيم وخطب غليظ، ـ إلى أن قال ـ والعجب من قوم يقرأون هذه الآية ويرون ما فيها ويسمعون هذه الأحاديث العظيمة، ثمّ لا تدعهم أشعبيتهم وطماعيتهم الفارغة، واتّباعهم هواهم، وما يخيل إليهم مناهم، أن يطمعوا في العفو عن قاتل المؤمن بغير توبة ﴿أفلا يتدبّرون القُرآن أَمْ عَلى قُلُوب أَقْفالها﴾.

فإن قلت: هل فيها دليل على خلود من لم يتب من أهل الكبائر ؟ قلت: ما أبين الدليل، وهو تناول قوله ﴿وَمَن يَقْتُلْ﴾ أي قاتل كان ما من مسلم أو كافر، تائب أو غير تائب، إلاّ انّ التائب أخرجه الدليل، فمن ادّعى إخراج المسلم غير التائب فليأت بدليل مثله. [2]

إنّ ما ذكره الزمخشري بطوله قد ذكره القاضي عبد الجبار على وجه الإيجاز، وقال: وجه الاستدلال أنَّه تعالى بين أن من قتل مؤمناً عمداً جازاه وعاقبه، وغضب عليه ولعنه وأخلده في جهنم.[3]

يلاحظ عليه أوّلاً: أنّ دلالة الآية بالإطلاق، فكما خرج منه القاتل الكافر إذا أسلم، والمسلم القاتل إذا تاب، فليكن كذلك من مات بلا توبة ولكن اقتضت الحكمة الإلهية أن يتفضل عليه بالعفو، فليس التخصيص أمراً مشكلاً.

وثانياً: انّ المحتمل أن يكون المراد القاتل المستحل لقتل المؤمن، أو قتله لإيمانه وهذا غير بعيد لمن لاحظ سياق الآيات. و مثل هذا يكون كافراً خالداً في النار.

(١) سورة النساء، الآية: ٩٣.
(٢) الكشاف: ١/ ٤١٦.
(٣) الأُصول الخمسة: ٦٥٩.

التفسير على ضوء منهج الأشعري

إنَّ فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي (٥٤٣ - ٦٠٦هـ) ممّن فسر كثيراً من الآيات القرآنية على ضوء مذهبه ومنهجه الذي يتبعه وهو مذهب الإمام الأشعري، وهو أشعري في العقيدة، شافعي في الفقه، فلنذكر نماذج من تفاسيره.

ـ جواز التكليف بما لا يطاق

إنّ جواز التكليف بما لا يطاق من مذاهب الأشاعرة ولقد احتج الرازي على مذهبهم بالآيات التالية: ﴿إِنَّ الّذين كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُون﴾. [١]

وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَولُ عَلى أَكْثرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمُنُون﴾ [٢].

وقوله: ﴿ذَرني وَمَنْ خَلْقتُ وَحيداً ـ إلى قوله: ـ سأُرهِقُهُ صعوداً﴾ [٣].

﴿تبّت يدا أَبي لَهَب﴾. [٤]

ثمّ أخذ بتقرير دلالة هذه الآيات على جواز التكليف بما لا يطاق بوجوه أربعة:

أوّلاً: إنَّه تعالى أخبر عن أشخاص معيّنين أنَّهم لا يؤمنون قط، فلو صدر منهم الإيمان، لزم انقلاب خبر الله تعالى الصدق كذباً.

وثانياً: إنَّه تعالى لمّا علم منهم الكفر، فكان صدور الإيمان منهم مستلزماً لانقلاب علمه تعالى جهلاً.

وثالثاً: إنَّه تعالى كلّف هؤلاء ـ الذين أخبر عنهم بأنّهم لا يؤمنون ـ بالإيمان البتة، والإيمان يعتبر فيه تصديق الله تعالى في كلّ ما أخبر عنه، وممّا أخبر عنه أنَّهم لا يؤمنون قط، فقد صاروا مكلّفين بأن يؤمنوا بأنّهم لا يؤمنون قط، وهذا تكلّف بالجمع بين النفي والإثبات. [٥]

(١) سورة البقرة، الآية: ٦.
(٢) سورة يس، الآية : ٧.
(٣) سورة المدثر، الآيات: ١١-١٧.
(٤) سورة المسد، الآية: ١.
(٥) تفسير الرازي: ٤٢/٢ .

يلاحظ عليه: أنّ الوجدان السليم والعقل الفطري يحكم بامتناع تكليف ما لا يطاق، فلا تنقدح الإرادة في لوح نفس الآمر وضمير روحه إذا علم أنَّ المأمور غير قادر على العمل، ولذلك قلنا في محله أنَّ مرجع التكليف بما لا يطاق إلى كون نفس التكليف محالاً، ولذلك يقول سبحانه: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفساً إلاّ وُسعَها**﴾[1].

وأمّا الوجوه التي اعتمد عليها الرازي فموهون جداً، وذلك أنَّ علمه الأزلي الذي اعتمد عليه في الوجهين الأوّلين لم يتعلّق بصدور كلّ فعل عن فاعله على وجه الإطلاق، بل تعلّق علمه بصدور كل فعل عن فاعله حسب الخصوصيات الموجودة فيه، وعلى ضوء ذلك تعلّق علمه الأزلي بصدور الحرارة من النار على وجه الجبر، بلا شعور كما تعلّق علمه الأزلي بصدور الرعشة من المرتعش، عالماً بلا اختيار، ولكن تعلّق علمه سبحانه بصدور فعل الإنسان الاختياري منه بقيد الاختيار والحرية، فتعلّق علمه بوجود الإنسان وكونه فاعلاً مختاراً وصدور فعله عنه اختياراً ـ فمثل هذا العلم ـ يؤكد الاختيار ويدفع الجبر عن ساحة الإنسان.

وإن شئت قلت: إنّ العلّة إذا كانت عالمة شاعرة، ومريدة ومختارة كالإنسان، فقد تعلّق علمه بصدور أفعالها منها بتلك الخصوصيات وانصباغ فعلها بصبغة الاختيار والحرية، فلو صدر فعل الإنسان منه بهذه الكيفية كان علمه سبحانه مطابقاً للواقع غير متخلّف عنه، وأمّا لو صدر فعله عنه في هذا المجال عن جبر و اضطرار بلا علم وشعور، أو بلا اختيار وإرادة، فعند ذلك يتخلّف علمه عن الواقع.

إذا عرفت ذلك فلنرجع إلى تحليل ما ذكره الرازي بلفظه، فقال:

فلو صدر منهم الإيمان لزم انقلاب خبر اللّه تعالى الصدق كذباً، فنقول:

إنّ هؤلاء لا يصدر منهم الإيمان إلى يوم القيامة قطعاً لكن لا من جهة إخباره سبحانه عنه بل لأجل اختيارهم وانتخابهم عدم الإيمان إلى يوم القيامة، فالإخبار عن عدم تديّنهم شيء، و كون الإيمان خارجاً عن الاختيار شيء آخر، والآية تخبر عن الأوّل دون الثاني.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

ومنه يظهر ضعف كلامه الثاني حيث قال: «**فكان صدور الإيمان منهم مستلزماً لانقلاب علمه تعالى جهلاً**»، وذلك لأنّه سبحانه أخبر عن عدم صدور الإيمان وبما أنَّه مخبر صادق لا يصدر منهم الإيمان لكن لا لأجل أنَّ الله أخبر عنه، بل لأجل مبادئ كامنة في أنفسهم تجرّهم إلى عدم الإيمان، فالإخبار عن عدم الإيمان شيء وكون الإيمان خارجاً عن اختيارهم شيء آخر، والآية تخبر عن الأوّل دون الثاني.

وبما ذكرنا من التحليل تقدر على تحليل الوجه الثالث إذ نمنع أنَّهم كانوا مكلّفين بعدم الإيمان بل كان أبو لهب مكلفاً بالتوحيد والرسالة فقط.

٢ ـ امتناع رؤية اللّه أو إمكانها

ذهبت الأشاعرة إلى جواز رؤيته سبحانه يوم القيامة، وهذا هو الأصل البارز في مدرستهم الكلامية، ثم إنّ هناك آيات تدلّ بصراحتها على امتناع رؤيته سبحانه فحاولوا إخضاع الآيات لنظريتهم، وإليك نموذجاً واحداً، يقول سبحانه:

﴿ذلكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لا إلهَ إلاّ هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيء فَاعبدُوهُ وَهوَ عَلى كُلِّ شَيء وَكيلٌ * لا تُدرِكُهُ الأبصارُ وَهُو يُدرِكُ الأبصارَ وَهوَ اللَّطيفُ الخَبير﴾.[1]

ومن المعلوم أنّ الإدراك مفهوم عام لا يتعيّن في البصري أو السمعي أو العقلي إلاّ بالإضافة إلى الحاسّة التي يراد الإدراك بها، فالإدراك بالبصر يراد منه الرؤية بالعين، والإدراك بالسمع يراد منه السماع، هذا هو ظاهر الآية، وهي تنفي إمكان الإدراك بالبصر على الإطلاق.

ولمّا وقف الرازي على أنّ ظاهر الآية أو صريحها لا يوافق أصله الكلامي، لأنّها ظاهرة في نفي الإدراك بالبصر، قال: إنّ أصحابنا (الأشاعرة) احتجّوا بهذه الآية على أنّه يجوز رؤيته والمؤمنون يرونه في الآخرة، وذلك لوجوه:

أنّ الآية في مقام المدح فلو لم يكن جائز الرؤية لما حصل التمدّح بقوله: **﴿لا تُدْرِكُهُ**

(١) سورة الأنعام، الآيات: ١٠٢-١٠٣.

﴿الأَبْصَارُ﴾ ألا ترى أنّ المعدوم لا تصح رؤيته، والعلوم والقدرة والإرادة والروائح والطعوم لا تصح رؤية شيء منها ولا يمدح شيء منها في كونها ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ فثبت أنّ قوله: ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ يفيد المدح، إلاّ إذا صحت الرؤية.

والعجب غفلة الرازي عن أنّ المدح ليس بالجزء الأوّل فقط، أعني: ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾، بل المدح بمجموع الجزأين المذكورين في الآية كأنّه سبحانه يقول: واللّه جلّت عظمته يدرك أبصاركم، ولكن لا تدركه أبصاركم، فالمدح بمجموع القضيتين لا بالقضية الأُولى.

إنَّ لفظ ﴿الأَبْصَارُ﴾ صيغة جمع دخل عليها الألف واللام فهي تفيد الاستغراق بمعنى أنّه لا يدركه جميع الأبصار، وهذا لا ينافي أن يدركه بعض الأبصار.[1]

يلاحظ عليه: إنَّ الآية تفيد عموم السلب لا سلب العموم، بقرينة كونه في مقام بيان رفعة ذاته، وشموخ مقامه.

كأنّه سبحانه يقول: **لا يدركه أحد من جميع ذوي الأبصار من مخلوقاته ولكنّه تعالى يدركهم وهذا نظير قوله سبحانه: ﴿كَذلِكَ يَطبَعُ اللهُ عَلى كُلِّ قَلبِ مُتَكبِّر جَبّار﴾**[2]وقوله: **﴿إنَّ اللهَ لا يُحبُّ كُلَّ مُختال فَخُور﴾**.[3]

إلى غير ذلك من الوجوه الواهية التي ما ساقه إلى ذكرها إلاّ ليُخضِعَ الآيةَ لمعتقده.

(١) تفسير الرازي: ١٢/١٢٥ .

(٢) سورة غافر، الآية: ٣٥.

(٣) سورة لقمان، الآية: ١٨.

خلاصة

الصورة الثانية من المناهج العقلية: تفسير القرآن على ضوء المدارس الكلامية.

المراد من هذا القسم هو إخضاع الآيات للعقائد التي اعتنقها المفسر في مدرسته الكلامية، ونجد هذا اللون من التفسير بالعقل غالباً في تفاسير أصحاب المقالات: المعتزلة والأشاعرة فقد حملوا الآيات على معتقدهم، وإن كان ظاهر الآية يأباه ولا يتحمله وتشير إلى نموذجين في ذلك:

١. نرى أنّ المعتزلة يخصّون آيات الشفاعة بأهل الطاعة دون العصاة ويرتكبون التأويل في موردها، وما هذا إلاّ للموقف الذي اتخذوه في حق العصاة ومقترفي الذنوب، في أبحاثهم الكلامية، فقالوا بخلود أهل العصيان في النار إذا ماتوا بلا توبة.

٢. ذهب الأشاعرة إلى جواز التكليف بما لا يطاق وقد احتج الرازي على مذهبهم بالآيات منها: قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾[1] وأخذ بتقرير دلالة الآيات على جواز التكليف بما لا يطاق بوجوه أربعة موهونة.

فالوجدان السليم والعقل الفطري يحكم بامتناع تكليف ما لا يطاق، قال سبحانه: ﴿**لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾[2].

(١) سورة البقرة، الآية: ٦.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

الدرس السابع

٣ - التفسير على ضوء السنن الاجتماعية

إنَّ النظرة الفاحصة في التفاسير التي ألّفت قبل القرن الرابع عشر يعرب عن أنّ الطابعَ العام لها هو تفسير الآيات القرآنية، وتبيين مفرداتها، وتوضيح جملها، وكشف مفاهيمها بمعزل عن المجتمع ومسائله ومشاكله، من دون أن يستنطقوا القرآن من أجل وضع الحلول المناسبة لمعاناتهم مع أنّ الواجب على المسلمين الرجوع إلى القرآن لمعالجة دائهم، كما يقول الإمام علي عليه السلام: «**ذلك القرآن فاستنطقوه، ولن ينطق، ولكن أُخبركم عنه: ألا إنّ فيه علم ما يأتي، والحديث عن الماضي، ودواء دائكم، ونظم ما بينكم**».[١]

فإذا كان هذا موقف القرآن الكريم، فالحقّ أنَّ القدامى لم يولوا العناية بهذا الجانب من التفسير إلاّ شيئاً يسيراً، وأوّل من فتح هذا الباب على مصراعيه هو السيد جمال الدين الأسد آبادي، فقد وجه أنظار المسلمين إلى الجانب الاجتماعي من التفسير، فقال في خطبته المعروفة: عليكم بذكر الله الأعظم، وبرهانه الأقوم، فإنّه نوره المشرق، الذي به يخرج من ظلمات الهواجس، ويتخلّص من عتمة الوسواس، وهو مصباح النجاة، من اهتدى به نجا، ومن تخلّف عنه هلك، وهو صراط الله القويم، من سلكه هُدي، ومن أهمله غوى.

وتبعه تلميذه ومن تربى في أحضانه، الإمام الشيخ محمد عبده، فأبدع منهجاً خاصاً للتفسير له ميزاته التالية:

١ . التحرر من قيود التقليد وإعمال العقل في الأقوال والآراء المروية في الآيات،

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٥٨.

وفهم كتاب الله من دون نظر إلى مذهب إمام دون إمام على وجه يكون القرآن هو المتبع دون مذهب الإمام.

٢ . الاهتمام ببيان نظم الاجتماع ومشاكل الأُمّة الإسلامية خاصة، ومشاكل الأُمم عامة، وبيان علاجها بما أرشد إليه القرآن من أُصول وتعاليم.

٣ . التوفيق بين القرآن والنظريات العلمية على وجه لا يكون القرآن مخالفاً للعلم.

فلنأت لكلّ ميزة بمثال.

أمّا الميزة الأُولى فيكفي التأمل فيما ذكره حول آية الوصية للوالدين.

الوصية للوالدين ليست منسوخة

يقول سبحانه: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الوَصِيةُ لِلْوالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلى الْمُتَّقِين**﴾. [١]

قال الشيخ الطوسي: تصح الوصية للوارث مثل الابن والأبوين وخالف جميع الفقهاء في ذلك وقالوا: لا وصية للوارث. [٢]

وقال صاحب المنار: الآية صريحة في جواز الوصية للوالدين ولا وارث أقرب للإنسان من والديه، وقد خصّهما بالذكر لأولويتهما بالوصية ثمّ عمّم الموضوع وقال: «**والأقربين**» ليعم كلّ قريب وارثاً كان أم لا، غير أنَّ جمهور الفقهاء رفضوا الآية وقالوا بأنَّ الآية منسوخة بآية المواريث، ولكنَّ الإمام عبده خالف رأي الجمهور وقال: لا دليل على أنّ آية المواريث نزلت بعد آية الوصية هنا، فإنَّ السياق ينافي النسخ، فإنَّ الله تعالى إذا شرع للناس حكماً وعلم أنَّه مؤقت وأنَّه سينسخه بعد زمن قريب فإنَّه لا يؤكّده ولا يوثّقه بمثل ما أكّد به أمر الوصية هنا من كونه حقّاً على المتّقين ومن وعيد لمن بدله. [٣]

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٠.
(٢) الخلاف: ٤١/٢ ، كتاب الوصية، المسألة .
(٣) تفسير المنار: ١٣٦/٢-١٣٧.

وهذا دليل على أنَّ الإمام نظر إلى الآية بعقلية حرة من دون أن يتبع رأي الأئمّة الأربعة وبذلك وجه لوم المتحجرين إلى نفسه كما هو شأن كلّ مصلح.

وأمّا الميزة الثانية، فالحقّ أنَّ تفسير الإمام مشحونة بهذه المباحث ولا يمكن لنا عرض معشار ما جاء في ذلك الكتاب من هذا النوع من المسائل، ولنقتصر بالمورد التالي:

الصبر وأثره البنّاء

يقول الإمام في تفسير قوله سبحانه: ﴿**وَتَوَاصَوا بِالصَّبْرِ**﴾ والصبر ملكة في النفس يتيسر معها احتمال ما يشق احتماله، والرضى بما يكره في سبيل الحقّ، وهو خلق يتعلّق به بل يتوقّف عليه كمال كلّ خُلق، و ما أُوتي الناس من شيء مثل ما أُتوا من فقد الصبر أو ضعفه، كلّ أُمّة ضعف الصبر في نفوس أفرادها، ضعف فيها كلّ شيء، وذهبت منها كلّ قوة، ولنضرب لذلك مثلاً: نقص العلم عند أُمّة من الأُمم كالمسلمين اليوم، إذا دقّقت النظر وجدت السبب فيه ضعف الصبر، فإنَّ من عرف باباً من أبواب العلم، لا يجد في نفسه صبراً على التوسع فيه، والتعب في تحقيق مسائله، وينام على فراش من التقليد هين لين، لا يكلفه مشقة، ولا يجشمه تعباً، ويسلّي نفسه عن كسله بتعظيم من سبقه، ولو كان عنده احترام حقيقي لسلفه، لاتّخذهم أُسوة له في عمله، فحذا حذوهم، وسلك مسلكهم، وكلّف نفسه بعض ما حمّلوا أنفسهم عليه واعتقد كما كانوا يعتقدون أنّهم ليسوا بمعصومين. (١)

وكم للأُستاذ بيانات شافية حول المحرمات كالقمار والزنا، وحول الجهاد وتحريم الربا إلى غير ذلك من الأُسس الاجتماعية في الإسلام.

وأمّا الميزة الثالثة فنقتصر بالمورد التالي:

(١) تفسير جزء عمّ، تفسير سورة العصر.

انشقاق السماء عند اختلال نظامها

يذكر في تفسير قوله سبحانه: ﴿إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ﴾ انشقاق السماء مثل انفطارها الذي مر تفسيره في سورة ﴿إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ﴾ وهو فساد تركيبها واختلال نظامها عندما يريد الله خراب هذا العالم الذي نحن فيه، وهو يكون بحادثة من الحوادث التي قد ينجر إليها سير العالم، كأن يمر كوكب في سيره بالقرب من آخر فيتجاذبا فيتصادما فيضطرب نظام الشمس بأسره، ويحدث من ذلك غمام وأي غمام، يظهر في مواضع متفرقة من الجو والفضاء الواسع، فتكون السماء قد تشققت بالغمام واختل نظامها حال ظهوره.[1]

وهذه الأمثلة نقلناها من تفسيره المعروف لجزء عمّ، ذلك التفسير الذي ألفه بقلمه بمشورة من بعض أعضاء الجمعية الخيرية الإسلامية ليكون مرجعاً لأساتذة مدارس الجمعية في تفهيم التلاميذ معاني ما يحفظونه من سور هذا الجزء، وعاملاً للإصلاح في أعمالهم وأخلاقهم، وقد أتمّ الاستاذ تفسير هذا الجزء سنة ١٣٢١ هـ وهو ببلاد المغرب.

وأمّا الدروس التي ألقاها الإمام فقد ابتدأ بأوّل القرآن في غرة محرم سنة ١٣١٧هـ، وانتهى عند تفسير قوله تعالى: ﴿ولله ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الأَرضِ وَكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْء مُحِيطاً﴾.[2]

في منتصف محرم سنة هـ، إذ توفّي رَحِمَهُ اللهُ لثمان خلون من جمادى الأُولى من السنة نفسها. وقد أملى الأُستاذ هذه الدروس على تلاميذه.

ومع الأسف إنَّ ما أملاه الإمام لم ينشر على وفق ما أملاه بلا تصرف بزيادة أو نقيصة، فإنَّ تلميذه السيد محمد رشيد رضا لمّا كتب تفسيره المسمّى بتفسير «المنار»

(١) تفسير جزء عمّ، ص ٤٩.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٢٦.

أدخل فيه ما كتبه عن أُستاذه من آراء وأقوال ومزجها بآرائه وأفكاره، ولذلك لا يمكن أن ينسب كلّ ما فيه إلى الإمام إلاّ إذا صرح الكاتب به.

وعلى كلّ حال فقد ابتدأ التلميذ بأوّل القرآن وانتهى عند قوله تعالى من سورة يوسف ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[1].

ثمّ وافته المنية قبل أن يتم تفسير القرآن.

موقف المنار من المعاجز والكرامات

قد تعرّفت على المزايا الإيجابية لتفسير المنار، وما فيه من اهتمام بالغ بتفسير القرآن وفق المعايير الاجتماعية السائدة على الحياة.

بيد أنَّ التفسير المذكور لا يخلو من سلبيات في موارد وأخصّ بالذكر المعاجز والكرامات، فقد حاول في كثير من الآيات المشتملة على هذا النوع من خوارق العادات، أن يخرجها عن طابعها الغيبي ويصبغ عليها الطابعَ المادي والذي دفع المصنّف إلى هذا النوع من التفكير هو انبهاره بالحضارة الغربية المادية حينما نفي أوائل القرن الرابع عشر الهجري وألقى رحل الإقامة في منفاه (باريس)، شاهد عن كثب تقدّم العلوم الطبيعية وازدهارها في مختلف المجالات وصار العلم يقيناً لكلّ ظاهرة علة مادية دون أن ينسبها إلى عوامل غيبية من الجن والملك.

وقد دفع ذلك، الأُستاذ إلى محاولة الجمع بين الدين والعلم من خلال تفسير الخوارق بالأسباب الطبيعية على نحو يخرجها عن كونها أمراً خارقاً للعادة، وقد تأثر بهذا المنهج كثير من تلامذته وهذه المحاولة ـ في الحقيقة ـ إخضاع الوحي للعلوم الطبيعة وتفسير له من هذا المنظار.

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠١.

وها نحن نذكر في المقام نماذج من هذه التأويلات ونقتصر من أجزاء المنار على الجزء الأوّل، كما نقتصر منه على بعض ما ذكره في تفسير سورة البقرة ونُحيل الباقي إلى القارئ الكريم.

١. ﴿وَلَقَد عَلِمتُمُ الّذينَ اعتَدَوْا منكُم فِي السَّبتِ فَقُلنا لَهُم كُونُوا قِرَدَةً خاسِئين * فَجَعَلناها نَكالاً لِما بَينَ يَدَيها وَما خَلفَها وَمَوعِظَةً للمتَّقين﴾[1].

كتب ما يلي:

إنَّ السلف من المفسّرين ـ إلاّ من شذّ ـ ذهب إلى أنّ معنى قوله: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أنّ صورهم مسخت فكانوا قردة حقيقيّين.

وإنّما نسب هذا المعنى إلى السلف، لأنّه يصطدم بالمنهج الذي اختاره الأُستاذ في تفسير القرآن، حيث لا تصدقه أنصار الحضارة المادية الّذين ينكرون إمكان صيرورة إنسان قرداً حقيقياً دفعة واحدة، ولأجل ذلك مال الأُستاذ إلى رأي مجاهد الذي قال: ما مسخت صورهم ولكن مسخت قلوبهم فمثّلوا بالقردة كما مثّلوا بالحمار في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الّذِينَ حُمِّلُوا التَّوراة ثمَّ لَم يَحمِلُوها كَمَثَلِ الحِمارِ يَحمِلُ أسفاراً﴾. [2]

ثم أخذ في نقد قول الجمهور ـ إلى أن قال ـ : فما قاله مجاهد هو الأوفق بالعبرة والأجدر بتحريك الفكرة.[3]

ولا يخفى أنّه إذا صحّ هذا التأويل، فيصح لكل من ينكر المعاجز والكرامات وخوارق العادات هذا النمط من التأويل، وعندئذ تبطل المعارف ويكون الكتاب العزيز لعبة بيد المحرّفين.

(١) سورة البقرة، الآيات: ٦٥-٦٦ .
(٢) سورة الجمعة، الآية: ٥.
(٣) تفسير المنار: ٣٤٣/١-٣٥٤.

٢ . نقل صاحب المنار عن بعض المفسّرين مذهباً خاصاً في معنى الملائكة وهو أنّ مجموع ما ورد في الملائكة من كونهم موكلين بالأعمال من إنماء نبات، وخلقة حيوان، وحفظ إنسان وغير ذلك، فيه إيماء إلى الخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة، وهو أنّ هذا النمو في النبات لم يكن إلاّ بروح خاص نفخه الله في البذرة فكانت به هذه الحياة النباتية المخصوصة، وكذلك يقال في الحيوان والإنسان، فكل أمر كلّي قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الإلهية في إيجاده فإنّما قوامه بروح إلهي، سُمِّي في لسان الشرع ملكاً ومن لم يبال في التسمية بالتوقيف يسمّي هذه المعاني القوى الطبيعية إذا كان لا يعرف من عالم الإمكان إلاّ ما هو طبيعة أو قوة يظهر أثرها في الطبيعة.

وقال الإمام عبده بعد نقل نظير هذه التأويلات: ولو أنّ نفساً مالت إلى قبول هذا التأويل لم تجد في الدين ما يمنعها من ذلك، والعمدة على اطمئنان القلب وركون النفس على ما أبصرت من الحق.

ولا يخفى أنّ هذا التأويل لو صحّ في بعض الأحاديث لما صحّ في الملائكة الواردة في قصة آدم وغيرها، وما هذا التأويل إلاّ للخضوع للمنهج الخاص الذي اختاره الأُستاذ في تفسير القرآن.

٣ . يقول سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّى نَرى الله جَهْرَة فَأَخَذتكُمُ الصاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرونَ ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون﴾ . (١)

المتبادر من الآية هو إحياؤهم بعد الموت، والخطاب لليهود المعاصرين للنبي ﷺ باعتبار أحوال أسلافهم، ولا يفهم أيّ عربي صميم من لفظة ﴿ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوتِكُمْ﴾، غير هذا إلاّ أنّ صاحب المنار ذهب إلى أنّ المراد من البعث هو كثرة النسل، أي أنّه بعد ما وقع فيهم الموت بالصاعقة وغيرها وظن أنّهم سينقرضون، بارك

(١) سورة البقرة، الآيات: ٥٥-٥٦.

الله في نسلهم ليعد الشعب بالبلاء السابق للقيام بحقّ الشكر على النعم التي تمتع بها الآباء الذين حل بهم العذاب بكفرهم لها. (١)

ولم يكن هذا التفسير من الأُستاذ إلاّ لأجل أنَّ الاعتراف بالإحياء بعد الموت في الظروف المادية ممّا لا يصدقه العلم الحسي والتجربة، فلأجل ذلك التجأ إلى تفسيره بما ترى، وما أظن أنَّ الأُستاذَ يتفوّه بهذا التفسير في نظائر الآية في القرآن الكريم.

٤. أمر سبحانه بني إسرائيل بذبح البقرة، وقال ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. (٢)

ومجمل القصة هو أنَّ رجلاً قتل قريباً له غنياً ليرثه، وأخفى قتله له، فرغب اليهود في معرفة قاتله، فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة ويضربوا بعض المقتول ببعض البقرة فإنّه يحيى، ويخبر عن قاتله. وهذا هو ما اختاره الجمهور في تفسير الآية، وهو صريح قوله سبحانه: ﴿فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها كَذلِكَ يُحيى اللهُ المَوتى﴾.

وأمّا الأُستاذ فقد سلك طريقاً آخر تحت تأثير موقفه المسبق من المعاجز والكرامات وخوارق العادة، فهو بعد أن نقل رأي الجمهور، قال: قالوا: إنّهم ضربوه فعادت إلى المقتول الحياة، وقال: قتلني أخي، أو ابن أخي فلان، قال: والآية ليست نصاً في مجمله فكيف بتفصيله؟

ثمّ فسر الآية بما ورد في التوراة من أنّه إذا قتل قتيل ولم يعرف قاتله، فالواجب أن تذبح بقرة في واد دائم السيلان ويغسل جميع أفراد القبيلة أيديهم على البقرة المكسورة العنق في الوادي، ويقولون: إنَّ أيدينَا لم تسفك هذا الدم. اغفر لشعبك

(١) تفسير المنار: ٣٢٢/١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٦٧-٧٣.

إسرائيل، ويُتمُّون دعوات يبرأ بها من يدخل في هذا العمل من دم القتيل، ومن لم يفعل يتبين أنّه القاتل، ويراد بذلك حقن الدماء.

ثمّ قال: وهذا الإحياء على حد قوله تعالى: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ**﴾[1] ومعناه حفظ الدماء التي كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف في قاتل تلك النفس.[2]

وأنت ترى أنّ هذا التفسير لا ينطبق على قوله ﴿**فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا**﴾ أي اضربوا النفس المقتولة ببعض جسم البقرة ﴿**كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى**﴾، فهل كان في غسل الأيدي على البقرة المكسورة العنق، ضرب المقتول ببعض البقرة ؟! هذا أوّلاً.

وأمّا ثانياً: كيف استند الأُستاذ ـ في تفسير الآية الحاضرة ـ بما ورد في التوراة، مع أنّ المشهور منه أنَّه يستوحش كثيراً من بعض الروايات التي ربما توافق ما ورد في الكتب المقدسة، ويصفها بالإسرائيليات والمسيحيات، ومع ذلك عدل عن مسلكه واستند في تفسير الذكر الحكيم بالكلم المحرفة ؟!

وليس هذا التفسير ـ في حقيقته ـ إلاّ لأجل ما اتخذه الأُستاذ من موقف مسبق تجاه المعاجز والكرامات، وخوارق العادة، وغير ذلك ممّا يرجع إلى عالم الغيب.

٥ . قال الله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الّذينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوت فَقالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحياهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْل عَلَى النّاس ولكِنْ أَكْثَر النّاس لا يشكُرون**﴾. [3]

ذهب الجمهور إلى أنَّهم قوم من بني إسرائيل فرُّوا من الطاعون أو من الجهاد فأرسل عليهم الموت، فلمّا رأوا أنَّ الموت كثر فيهم خرجوا من ديارهم فراراً منه، فأماتهم الله جميعاً وأمات دوابَّهم ثمّ أحياهم لمصالح وغايات أشير إليها في الآية.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٩.
(٢) تفسير المنار: ١/٣٤٥-٣٥٠ .
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٤٣.

لكنَّ الأُستاذَ أنكر ذلك واختار كون الآية مسوقة سوق المثل، وأنَّ المراد بهم قوم هجم عليهم أُولو القوة والقدرة من أعدائهم فلم يدافعوا عن استقلالهم وخرجوا من ديارهم وهم أُلوف، فقال لهم الله موتوا موت الخزي والجهل، والخزي موت والعلم وإباء الضيم حياة، فهؤلاء ماتوا بالخزي ثمّ أحياهم بإلقاء روح النهضة والدفاع عن الحقّ، فقاموا بحقوق أنفسهم واستقلّوا في أمرهم.

يلاحظ عليه: أنّه لو كانت الآية مسوقة سوق المثل وجب أن تذكر فيه لفظة «المثل» كما هو دأبه سبحانه في الأمثال القرآنية، مثل قوله: ﴿**كَمَثَلِ الَّذي اسْتَوقَدَ ناراً**﴾.[1]

وقوله تعالى: ﴿**إِنّما مَثَلُ الحَياة الدُّنْيا كَماء أَنْزَلْناهُ**﴾.[2]

وقوله تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذينَ حمِّلُوا التَّوراة ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الحِمار يَحْمِلُ أَسفاراً**﴾.[3]

فحمل الآية على المثل وإخراجها عن كونها وردت لبيان قصة حقيقية، تفسير بلا شاهد، وتأويل بلا دليل.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧.
(٣) سورة يونس، الآية: ٢٤.

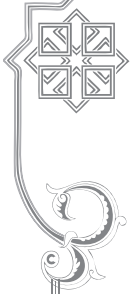

خلاصة

الصورة الثالثة من المناهج التفسيرية العقلية: التفسير على ضوء السنن الاجتماعية:

التفاسير التي ألفت قبل القرن الرابع عشر تعرب عن أن الطابع العام لها هو تفسير الآيات القرآنية، وتبيين مفرداتها، وتوضيح جملها، وكشف مفاهيمها بمعزل عن المجتمع ومسائله ومشاكله، من دون أن يستنطقوا القرآن من أجل وضع الحلول المناسبة لمعاناتهم مع أنَّ الواجب على المسلمين الرجوع إلى القرآن لمعالجة دائهم كما يقول الامام علي عليه السلام: «**ذلك القرآن فاستنطقوه، ولن ينطق، ولكن أخبركم عنه: ألا إنَّ فيه علم ما يأتي: والحديث عن الماضي، ودواء دائكم، ونظم ما بينكم**» فإذا كان هذا موقف القرآن الكريم، فأول من فتح هذا الباب على مصراعيه هو السيد جمال الدين الأسد آبادي قدس سره وتبعه تلميذه الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله فاتبع منهجاً خاصاً للتفسير له ميزاته التالية:

١. التحرر من قيود التقليد وأعمال العقل في الأقوال والآراء المروية في الآيات، وفهم كتاب الله على وجه يكون هو المتبع دون مذهب الإمام.

٢. الاهتمام ببيان نظم الاجتماع ومشاكل الأمة الإسلامية.

٣. التوفيق بين القرآن والنظريات العلمية.

وقد ذكرت الأمثلة على الإهمال لهذا التوجه في التفسير كمسألة الوصية للوالدين، والصبر وأثره البناء وغير ذلك فراجع.

الدرس الثامن

٤ - التفسير على ضوء العلم الحديث

ومن المولعين بهذا النمط من التفسير الشيخ طنطاوي جوهري (١٢٨٧-١٣٥٨هـ) في كتابه المعروف «الجواهر في تفسير القرآن» وهو يهتم بهذا النمط، قائلاً بأنّ في القرآن من آيات العلوم ما يربو على ٧٥٠ آية في حين أنَّ علم الفقه لا تزيد آياته الصريحة على ١٥٠ آية.

ثمّ إنّه يهيب بالمسلمين أن يتأمّلوا في آيات القرآن التي ترشد إلى علوم الكون ويحثّهم على العمل بما فيها ويندد بمن يغفل عن هذه الآيات على كثرتها، وينعى على من أغفلها من السابقين الأوّلين ووقف عند آيات الأحكام وغيرها ممّا يتعلق بأُمور العقيدة.

ثمّ إنّ الشيخ الذهبي قد ذكر نماذج من هذا النوع من التفسير استخرجها من دراسة هذا التفسير وقال: إنّا لنجد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ يفسر آيات القرآن تفسيراً علمياً يقوم على نظريات حديثة وعلوم جديدة لم يكن للعرب عهد بها من قبل ثمّ قال: وإليك بعض ما جاء في هذا التفسير.

يقول سبحانه: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيديهِم وَأَرجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُون﴾[١] وقوله سبحانه: ﴿اَلْيَومَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيديهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُون﴾ [٢] والشيخ طنطاوي يفسر الآيتين ونظائرهما بما أثبته العلم.

يقول: «أو ليس الاستدلال بآثار الاقدام، وآثار أصابع الأيدي في آياتنا الحاضرة، هو نفس الذي صرح به القرآن، وإذا كان الله يعلم ما في البواطن بل هو القائل للإنسان:

(١) سورة النور، الآية: ٣٤.
(٢) سورة يس، الآية: ٦٥.

﴿كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [١].

والقائل: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [٢] أفلا يكون ذكر الأيدي والأرجل والجلود وشهادتها يوم القيامة ليلفت عقولنا إلى أنّ من الدلائل ما ليس بالبينات المشهورة عند المسلمين ؟ وأنَّ هناك ما هو أفضل منها ؟ وهي التي يحكم بها الله فاحكموا بها. ويكون ذلك القول لينبهنا ويفهمنا أنَّ الأيدي فيها أسرار، وفي الأرجل أسرار، وفي النفوس أسرار، فالأيدي لا تشتبه، والأرجل لا تشتبه، فاحكموا على الجانين والسارقين بآثارهم أو ليس في الحق أن أقول: إنّ هذا من معجزات القرآن وغرائبه ؟ وإلاّ فلماذا هذه المسائل التي ظهرت في هذا العصر تظهر في القرآن بنصها وفصها. [٣]

٤ . يقول سبحانه: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماوات وَالأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيء حَيّ أفلا يُؤمِنُون﴾ [٤].

فقد فسر القدماء فتق السماء بنزول المطر وفتق الأرض بخروج النبات غير أنَّ الشيخ طنطاوي يفسره بما يوحي إليه العلم الحديث، يقول: ها أنت قد اطّلعت على ما أبرزه القرآن قبل مئات السنين، من أنّ السماوات و الأرض أي الشمس والكواكب وما هي فيه من العوالم، كانت ملتحمة فصلها الله تعالى، وقلنا: إنَّ هذه معجزة، لأنّ هذا العلم لم يعرفه الناس إلاّ في هذه العصور، ـ إلى أن قال: ـ كأنّه يقول: سيرى الذين كفروا أنَّ السماوات والأرض كانت مرتوقة ففصلنا بينهما، فهو و أنْ ذكرها بلفظ الماضي فقد قصد منه المستقبل كقوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ﴾ وهذه معجزة تامة للقرآن، وعجيبة من أعجب ما يسمعه الناس في هذه الحياة الدنيا [٥].

٥ . يذكر في تفسير قوله سبحانه: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [٦] قوله: والمارج المختلط بعضه ببعض، فيكون اللهب الأحمر والأصفر والأخضر مختلطات، وكما

(١) سورة الاسراء، الآية: ١٤.
(٢) سورة القيامة، الآية: ١٤.
(٣) الجواهر: ٩/٣ .
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.
(٥) الجواهر: ١٠/ ١٩٩.
(٦) سورة الرحمن، الآية: ١٥.

أنَّ الإنسان من عناصر مختلفات هكذا الجان من أنواع من اللهب مختلطات، ولقد ظهر في الكشف الحديث انّ الضوء مركب من ألوان سبعة غير ما لم يعلموه. فلفظ المارج يشير إلى تركيب الأضواء من ألوانها السبعة، وإلى انّ اللهب مضطرب دائماً، وإنّما خلق الجن من ذلك المارج المضطرب، إشارة إلى أنَّ نفوس الجان لا تزال في حاجة إلى التهذيب والتكميل. تأمل في مقال علماء الأرواح الذين استحضروها إذ أفادتهم أنَّ الروح الكاملة تكون عند استحضارها ساكنة هادئة، أمّا الروح الناقصة فإنّها تكون قلقة مضطربة.[١]

هذه النماذج ونظائرها استخرجها الأُستاذ الذهبي من تفسير الشيخ طنطاوي، وأعقبها بقوله:

والكتاب ـ كما ترى ـ موسوعة علمية، ضربت في كلّ فن من فنون العلم بسهم وافر، ممّا جعل هذا التفسير يوصف بما يوصف به تفسير الفخر الرازي، فقيل عنه (فيه كلّ شيء إلاّ التفسير) بل هو أحقّ من تفسير الفخر بهذا الوصف وأولى به، وإذا دلّ الكتاب على شيء، فهو أنَّ المؤلف كان كثيراً ما يسبح في ملكوت السماوات والأرض بفكره، ويطوف في نواح شتى من العلم بعقله وقلبه، ليجلي للناس آيات اللّه في الآفاق وفي أنفسهم، ثمّ ليظهر لهم بعد هذا كلّه أنَّ القرآن قد جاء متضمناً لكلّ ما جاء به الإنسان من علوم ونظريات، ولكلّ ما اشتمل عليه الكون من دلائل وأحداث، تحقيقاً لقول اللّه تعالى في كتابه: ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾ ولكن هذا خروج بالقرآن عن قصده، وانحراف به عن هدفه[٢].

ويلاحظ على ذيل ما ذكره الذهبي أنَّ المراد من «الكتاب» في الآية هو الكتاب التكويني للّه سبحانه، لا التدويني، يظهر ذلك لمن أمعن في الآية وسياقها.

---

(١) الجواهر: ٢٤/١٧.

(٢) التفسير والمفسرون: ٥١٧/٢.

خلاصة

الصورة الرابعة من المناهج التفسيرية العقلية: التفسير على ضوء العلم الحديث.

يعتبر الشيخ طنطاوي جوهري من المولعين بهذا النمط من التفسير، يقول عنه الشيخ الذهبي أنه يفسر آيات القرآن تفسيراً علمياً يقوم على نظريات حديثة وعلوم جديدة لم يكن للعرب عهد بها من قبل ومثّل ببعض الآيات وتفسيرها كقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1]، فقد فسرها بما أثبته العلم. واعتبر أن شهادة الأيدي والأرجل أفضل من البينات المشهورة بين المسلمين، وهي التي يحكم بها الله فاحكموا بها.

(١) سورة النور، الآية: ٢٤.

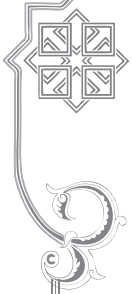

الدرس التاسع

٥ - التفسير حسب تأويلات الباطنية

تطلق الباطنية ويراد بها الإسماعيلية الذين قالوا بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام بعد رحيل أبيه، وعرفوا بالباطنية لأخذهم باطن القرآن دون ظاهره.

أما إسماعيل بن جعفر عليه السلام فهو بريء من هذه الوصمة، وإنّما هي أفكار موروثة من محمد بن مقلاص المعروف بأبي الخطاب الأسدي وزملائه، نظراء: المغيرة بن سعيد، وبشار الشعيري، وعبد اللّه بن ميمون القداح، إلى غير ذلك من رؤساء الباطنية، وقد تبرّأ الإمام الصادق عليه السلام والأئمّة المعصومون من هذه الفرقة في بلاغات وخطابات خاصة إلى أتباعهم، ولعنوا الخطابية، ولم نعثر لهم على كتاب تفسيري يفسر القرآن برمته، وإنّما حاولوا تفسير الموضوعات الواردة في القرآن والأحاديث وأسموها بباطن القرآن.

إنّ الباطنية وضعوا لتفسير المفاهيم الإسلامية ضابطة ما دلّ عليها من الشرع شيء وهو أنّ للقرآن ظاهراً وباطناً، والمراد منه باطنه دون ظاهره المعلوم من اللغة، ونسبة الباطن إلى الظاهر كنسبة اللب إلى القشر، وإنّ باطنه يؤدي إلى ترك العمل بظاهره، واستدلّوا على ذلك بقوله سبحانه:

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾.

وعلى ضوء ذلك فقد أوّلوا المفاهيم الإسلامية بالنحو التالي:

١. الوضوء عبارة عن موالاة الإمام.

٢. التيمم هو الأخذ المأذون عند غيبة الإمام الذي هو الحجة.

٣ . والصلاة عبارة عن الناطق الذي هو الرسول بدليل قوله تعالى في الآية من سورة العنكبوت: ﴿إِنَّ الصَّلاة تَنْهى عَنِ الفَحْشاء وَالْمُنْكر﴾.

٤ . والغسل تجديد العهد فمن أفشى سراً من أسرارهم من غير قصد، وإفشاء السر عندهم على هذا النحو هو معنى الاحتلام.

٥ . والزكاة هي تزكية النفس بمعرفة ما هم عليه من الدين.

٦ . والكعبة النبي.

٧ . والباب علي.

٨ . والصفا هو النبي.

٩ . والمروة علي.

١٠ .والميقات الإيناس.

١١ .والتلبية إجابة الدعوة.

١٢ .والطواف بالبيت سبعاً موالاة الأئمة السبعة.

١٣ .والجنة راحة الأبدان من التكاليف.

١٤ .والنار مشقّتها بمزاولة التكاليف.[١]

هذا ما نقلناه عن كتاب «**المواقف**»، وإن كنت في شك ممّا ذكره فنحن ننقل شيئاً من تأويلاتهم من كتاب «**تأويل الدعائم**» للقاضي النعمان الذي كان قاضي قضاة الخليفة الفاطمي المعز لدين الله منشئ القاهرة وجامعة الأزهر، وهذا الكتاب يضم في طياته تأويل الأحكام الشرعية بدأً بالطهارة والصلاة وانتهاءً بكتاب الجهاد، فقد أوّل كلّ ما جاء في هذه الأبواب من العناوين والأحكام، وطبع الكتاب في مطبعة دار المعارف في

(١) المواقف: ٨/ ٣٩٠.

مصر، وإليك نزراً من هذه التأويلات.

جاء في كتاب «**تأويل الدعائم**»: عن الباقر عليه السلام: «**بني الإسلام على سبع دعائم**[1]: **الولاية: وهي أفضل وبها وبالوليّ يُنتهى إلى معرفتها، والطهارة، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والجهاد**»، فهذه كما قال عليه السلام: دعائم الإسلام قواعده، وأُصوله التي افترضها الله على عباده.

ولها في التأويل الباطن أمثال، فالولاية مَثلُها مَثلُ آدم عليه السلام لأنّه أوّل من افترض الله عزّ وجلّ ولايته، وأمر الملائكة بالسجود له، والسجود: الطاعة، وهي الولاية، ولم يكلّفهم غير ذلك فسجدوا إلاّ إبليس، كما أخبر تعالى، فكانت المحنةُ بآدم عليه السلام الولاية، وكان آدمُ مثلَها، ولابدَّ لجميع الخلق من اعتقاد ولايته، ومن لم يتولّه، لم تنفعْهُ ولاية من تولاّه من بَعده، إذا لم يدُن بولايته ويعترف بحقّه، وبأنّه أصل مَنْ أوجب اللّهُ ولايتَه من رسله وأنبيائه وأئمّة دينه، وهو أوّلهم وأبوهم. والطهارة: مَثَلُها مَثَلُ نوح عليه السلام، وهو أوّل مبعوث ومرسل من قبل الله ـ لتطهير العباد من المعاصي والذنوب التي اقترفوها، ووقعوا فيها من بعد آدم عليه السلام، وهو أوّل ناطق من بعده، وأوّلُ أُولي العزم من الرسل، أصحاب الشرائع، وجعلَ الله آياته التي جاء بها، الماء، الذي جعله للطهارة وسمّاه طهوراً.

والصلاة: مَثَلُها مَثَلُ إبراهيم عليه السلام وهو الذي بَنى البيتَ الحرام، ونصبَ المقام، فجعل الله البيت قبلة، والمقامَ مصلّى.

والزكاة: مثلها مثل موسى، وهو أوّل من دعا إليها، وأُرسل بها، قال تعالى: ﴿**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى**﴾[2].

والصوم: مَثَلُه مثل عيسى عليه السلام وهو[3] أوّل ما خاطب به أُمّه، أن تقولَ لِمَنْ رأته

(١) المروى عن طرقنا: بني الإسلام على خمس.
(٢) سورة النازعات، الآيات: ١٥-١٨.
(٣) الظاهر أنّ ضمير الفاعل يرجع إلى روح الأمين.

من البشر، وهو قوله الذي حكاه تعالى عنه لها: ﴿**فَإِمّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَومَ إِنْسِيّاً**﴾[1]. وكان هو كذلك يصوم دهره، و لم يكن يأتي النساء، كما لا يَجوز للصائم أن يأتيهنّ في حال صومه.

والحج: مَثَلُه مَثَلُ محمّد ﷺ، وهو أوّل من أقام مناسك الحج، و سنَّ سنته، وكانت العرب و غيرها من الأُمم، تحجّ البيت في الجاهليّة و لا تقيم شيئاً من مناسكه، كما أخبر اللّه تعالى عنهم بقوله: ﴿**وما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاّ مُكاءً وَ تَصْدِيَةً**﴾[2].

وكانوا يطوفون به عُراة، فكان أوّلُ شيء نهاهم عنه ذلك فقال، في العُمرة التي اعتمرها، قبل فتح مكة، بعد أن وادعَ أهلَها، وهم مشركون: «**لا يطوفنّ بعد هذا بالبيت عريان، ولا عريانة**»، وكانوا قد نصبوا حول البيت أصناماً لهم يعبدونها، فلمّا فتح اللّهُ مكّة كسّرها، وأزالها، وسنَّ لهم سُنن الحجّ، و مناسكه، وأقام لهم بأمر اللّهِ معالمه. وافترض فرائضه. و كان الحجّ خاتمة الأعمال المفروضة، وكان هو ﷺ خاتم النبيين، فلم يبق بعدَ الحجّ من دعائم الإسلام غير الجهاد، وهو مثل سابع الأئمّة، الذي يكون سابع أسبوعهم الأخير، الذي هو صاحب القيامة.[3]

مع الشهرستاني في كتابه «**مفاتيح الأسرار**».

الرأي السائد في مذهب الشهرستاني (٤٦٧-٥٤٨ هـ) هو أنَّه أشعري ... يأخذ بظواهر القرآن وفي الوقت نفسه يطلب له تأويلاً تنسجم مع الفكر الإسماعيلي.

يقول في مقدّمته: لقد كانت الصحابة (رضي اللّه عنهم) متّفقين على أنّ علم القرآن مخصوص بأهل البيت عليهم السلام، إذ كانوا يسألون علي بن أبي طالب عليه السلام هل خصصتم أهل البيت دوننا بشيء سوى القرآن؟ وكان يقول: «**لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلاّ بما في قراب سيفي هذا**».

فاستثناء القرآن بالتخصيص دليل على إجماعهم بأنّ القرآن وعلمه، تنزيله، وتأويله

(١) سورة مريم، الآية: ٢٦.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٥.
(٣) تأويل الدعائم: ١/٥١-٥٢.

مخصوص بهم، ولقد كان حبر الأُمّة عبد الله بن عباس (رضي الله عنه) مصدر تفسير جميع المفسرين، وقد دعا له رسول الله ﷺ بأن قال: «**اللهمّ فقّهه في الدين، وعلّمه التأويل**» فتلمّذ لعلي عليه السلام حتى فقّهه في الدين وعلَّمه التأويل.

ولقد كنت على حداثة سنّي أسمع تفسير القرآن من مشايخي سماعاً مجرداً حتى وُفقْتُ، فعلّقته على أُستاذي ناصر السنّة أبي القاسم سلمان بن ناصر الأنصاري (رضي الله عنهما) تلقفاً (كذا).

ثمّ أطلعتني مطالعات كلمات شريفة عن أهل البيت وأوليائهم (رضي الله عنهم) على أسرار دفينة وأُصول متينة في علم القرآن، وناداني من هو في شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة الطيبة ﴿**يا أَيُّها الَّذينَ آمنوا اتَّقُوا الله وَكُونُوا مَعَ الصّادِقين**﴾.[1]

فطلبت الصادقين طلبَ العاشقين، فوجدت عبداً من عباد الله الصالحين كما طلب موسى عليه السلام مع فتاه ﴿**فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنّا عِلْماً**﴾[2] فتعلّمت منه مناهج الخلق والأمر، ومدارج التضاد والترتيب، ووجهي العموم والخصوص، وحكمي المفروغ والمستأنف، فشبعت من هذا المِعَا الواحد، دون الأمعاء التي هي مآكل الضُّلاّل ومداخل الجُهّال، وارتويت من شرب التسليم بكأس، كان مزاجه من تسنيم فاهتديت إلى لسان القرآن: نظمه، وترتيبه، وبلاغته وجزالته، وفصاحته، وبراعته.

ثمّ إنّه بعد ما يشير إلى أنّ القرآن بحر لا يدرك غوره، ولا يدرك ساحله، والسباحة في هذا البحر كان مقروناً بالخطر، يقول: فوجدت الحبر العالم فاتّبعته على أن يعلِّمني ممّا عُلّم رُشداً، وآنست ناراً، فوجدت على النار هدى فنقلت القراءة والنحو واللغة، والتفسير، والمعاني من أصحابها على ما أوردوه في الكتب نقلاً صحيحاً، من غير تصرّف فيها بزيادة أو نقصان، سوى تفسير مجمل، أو تقصير مطوّل، وعقّبتُ كل آية

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٩.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٦٥.

بما سمعت فيها من الأسرار، وتوسمتها من إشارات الأبرار، ولقد مرّ على الخوض فيها فصول في علم القرآن هي مفاتيح العرفان، وقد بلغت اثنا عشر فصلاً، قد خلت عنها سائر التفاسير وسمّيت التفسير بـ «**مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار**» وأستعيذ بالله السميع العليم من القول فيها برأي واستبداد دون رواية وإسناد، والخوض في أسرارها ومعانيها جزافاً وإسرافاً دون العرض على ميزان الحقّ والباطل، وإقامة الوزن بالقسط وتقرير الحقّ وتزييف الرأي المقابل له.[١]

ثمّ إنّه ذكر في الفصل الثامن معنى التفسير والتأويل وبما أنَّ لأكثر كلامه مسحة من الحق نأتي به.

يقول: ثمّ التأويل المذكور في القرآن على أقسام:

منها: تأويل الرؤيا بمعنى التعبير ﴿**هذا تَأْويلُ رُؤْيايَ مِنْ قَبْل**﴾.[٢]

ومنها: تأويل الأحاديث ﴿**وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْويلِ الأَحاديث**﴾. [٣]

ومنها: تأويل الأفعال ﴿**ذلك تَأويلُ ما لَمْ تَسَطِعْ عَلَيْه صَبْراً**﴾. [٤]

ومنها: الرد إلى العاقبة والمال: ﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ إلاّ تَأْويلَهُ**﴾[٥]

ومنها: الرد إلى الله والرسول ﴿**فَإِنْ تَنازَعْتُمْ في شَيْء فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَومِ الآخِرِ ذلكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْويلاً**﴾.[٦]

ومنها: تأويل المتشابهات ﴿**فَأَمّا الَّذينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْويلِه**﴾.[٧]

(١) مفاتيح الأسرار: ٢/١ .
(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٦.
(٤) سورة الكهف، الآية: ٨٢.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٥٣.
(٦) سورة النساء، الآية: ٥٩.
(٧) سورة آل عمران، الآية: ٧.

وفي القرآن أحكام المفروغ، وأحكام المستأنف، وأحكام متقابلات على التضاد، وأحكام متفاصلات على الترتب، فرؤية المستأنف هو الظاهر والتنزيل والتفسير، ورؤية حكم المفروغ هو الباطن والتأويل والمعنى والحقيقة ﴿**وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاّ أُولُوا الأَلْبابِ**﴾[1]-[2].

فهذا المقطع من كلامه يبيّن موقفه من تأويل القرآن، فالأسرار التي يودعها في تفسيره إن كان مستنداً إلى نص معتبر فهو مقبول، وإلاّ فيرجع إلى التفسير بالرأي. ومن أراد أن يقف على منهج تفسيره وتأويله، فلينظر إلى تفسير قوله سبحانه ﴿**وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا الاّ إِبْلِيسَ أَبى وَاسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الكافِرِينَ**﴾ [3] فلاحظ ص١١٧-١٢١ من التفسير المذكور. [4]

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧.

(٢) مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار: ١/ ١٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٤.

(٤) ونرفع آية الاعتذار إلى القرّاء الأعزاء لإطناب الكلام فيه، وما ذلك إلاّ نتيجة الغموض الذي كان يكتنف بعض جوانب سيرة المؤلف، حتى وقفنا على تفسيره فاطّلعنا على جانب من حياته ومذهبه الّذي كان مكتوماً حقبة طويلة من الزمن، وإن كان في بعض الكلمات التي نقلناها في كتاب الملل والنحل إشارة إليه.

خلاصة

الصورة الخامسة من المناهج التفسيرية بالعقل: التفسير حسب تأويلات الباطنية.

تطلق الباطنية ويراد بها أتباع المذهب الاسماعيلي الذين قالوا بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام بعد رحيل أبيه، وعرفوا بذلك لأخذهم باطن القرآن دون ظاهره. واستدلّوا على ذلك بقوله سبحانه: ﴿**فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ**﴾[1]، وعلى ضوء ذلك فقد أوّلوا المفاهيم الإسلامية بالنحو التالي:

١. الوضوء عبارة عن موالاة الإمام عليه السلام.

٢. التيمم هو الأخذ المأذون عند غيبة الإمام الذي هو الحجة عجل الله فرجه الشريف.

٣. الكعبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

٤. والباب علي عليه السلام، إلى غير ذلك.

(١) سورة الحديد، الآية: ١٣.

الدرس العاشر

٦ - التفسير حسب تأويلات الصوفية

التفسير الصوفي تأثر إلى حد كبير بأفكار الباطنية، واستخدم القرآن في تعقيب هدف خاص وهو دعم الأُسس العرفانية والفلسفية، وفي الحقيقة أنَّهم لم يخدموا القرآن الكريم بشيء وإنّما خدموا آراءهم وأفكارهم من خلال تطبيق الآيات على آرائهم.

فالتفسير الصوفي شعبة من شعب التفسير الباطني في قالب معين كما أشرنا إليه.

وهو ينقسم إلى: تفسير نظري، وفيضي.

أمّا الأوّل، فهو التفسير المبني على أُصول فلسفية ورثوها من أصحابها، فحاولوا تحميل نظرياتهم على القرآن الكريم.

وأمّا التفسير الفيضي، فهو تأويل الآيات على خلاف ما يظهر منها بمقتضى إشارات رمزية تظهر لأرباب السلوك من غير دعم بحجة أو برهان.

وبعبارة أُخرى: التفسير الفيضي يرتكز على رياضة روحية يأخذ بها الصوفي نفسه حتى يصل بها إلى درجة تنهل على قلبه من سحب الغيب ما تحمله الآيات من المعارف الإلهية.

وعلى كلّ تقدير فتفاسيرهم من غير فرق بين النظري والفيضي مبنية على حمل القرآن على ما يعتقدون به من الأُصول والقواعد من دون حجة وبرهان.

وهانحن نذكر شيئاً من تفاسيرهم:

تفسير التستري

ولعلّ أوّل تفسير ظهر هو تفسير أبي محمد سهل بن عبد الله التستري (٢٠٠ - ٢٨٣ هـ) وقد طبع بمطبعة السعادة بمصر عام ١٩٠٨ هـ، جمعه أبو بكر محمد بن أحمد البلدي، فهو يفسر البسملة بالشكل التالي:

أ. **الباء:** بهاء الله، والسين: سناء الله، والميم: مجد الله، والله: هو الاسم الأعظم الذي حوى الأسماء كلها، وبين الألف واللام منه حرف مكنّى، غيب من غيب إلى غيب، وسر من سر إلى سر[١].

ب. من ذلك ما ذكره في تفسير الآية ﴿**وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ**﴾[٢] لم يرد الله معنى الأكل في الحقيقة، وإنّما أراد معنى مساكنة الهمة لشيء هو غيره أي لا تهتم بشيء هو غيري، قال: فآدم عليه السلام لم يعصم من الهمة والفعل في الجنة، فلحقه ما لحقه من أجل ذلك، قال: وكذلك كلّ من ادّعى ما ليس له وساكنه قلبه ناظراً إلى هوى نفسه، لحقه الترك من الله مع ما جبلت عليه نفسه، إلاّ أن يرحمه الله فيعصمه من تدبيره وينصره على عدوه وعليها.[٣]

ج. ومنها ما ذكره في تفسير الآية ٩٦ من سورة آل عمران: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ**﴾... «**أوّل بيت وضع للناس بيت الله عزّ وجلّ بمكة، هذا هو الظاهر، وباطنها الرسول يؤمن به من أثبت الله في قلبه التوحيد من الناس**».[٤]

د. ومنها ما ذكره في تفسير الآية من سورة النساء ﴿**وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ...**﴾: وأمّا باطنها، فالجار ذي القربى هو القلب، والجار الجنب: هو الطبيعة، والصاحب بالجنب: هو العقل المقتدى بالشريعة، وابن السبيل هو الجوارح المطيعة لله.[٥]

(١) تفسير التستري: ١٢ .
(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٥.
(٣) تفسير التستري: ١٦-١٧.
(٤) تفسير التستري: ٤٥.
(٥) تفسير التستري: ٦٦.

حقائق التفسير للسلمي

إنّ ثاني تفاسير الصوفية التي ظهرت إلى الوجود، هو تفسير أبي عبد الرحمن السلمي (٣٣٠- ٤١٢ هـ) المسمّى بـ «**حقائق التفسير**» وكان شيخ الصوفية ورائدهم بخراسان، وله اليد الطولى في التصوّف.

أ. قال في تفسير الآية ﴿**وَلَوْ أَنّا كَتَبْنا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيارِكُمْ ما فَعَلُوهُ إِلاّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ**﴾.[١]

قال محمد بن الفضل: اقتلوا أنفسكم بمخالفة هواها، أو اخرجوا من دياركم، أي أخرجوا حب الدنيا من قلوبكم ما فعلوه إلاّ قليل منهم في العدد، كثير في المعاني، وهم أهل التوفيق والولايات الصادقة[٢].

ب. وفي سورة الرعد عند قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فيها رَواسِيَ**﴾[٣]. يقول: قال بعضهم: هو الذي بسط الأرض، وجعل فيها أوتاداً من أوليائه وسادة من عبيده فإليهم الملجأ وبهم النجاة، فمن ضرب في الأرض يقصدهم فاز ونجا، ومن كان بغيته لغيرهم خاب وخسر.[٤]

ج. وفي سورة الحجّ عند قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزلَ من السَّماءِ ماءً فتُصبِحُ الأرضُ مُخْضَرّة**﴾[٥].

يقول: قال بعضهم: أنزل مياه الرحمة من سحائب القربة وفتح إلى قلوب عباده عيوناً من ماء الرحمة، فأنبتت فاخضرّت بزينة المعرفة، وأثمرت الإيمان، وأينعت التوحيد، أضاءت بالمحبة فهامت إلى سيّدها، واشتاقت إلى ربها فطارت بهمتها، وأناخت بين يديه، وعكفت فأقبلت عليه، وانقطعت عن الأكوان أجمع. ذاك آواها الحق إليه، وفتح

(١) سورة النساء، الآية: ٦٦.
(٢) تفسير السلمي: ٤٩.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٣.
(٤) تفسير السلمي: ١٣٨.
(٥) سورة الحج، الآية: ٦٣.

لها خزائن أنواره، وأطلق لها الخيرة في بساتين الأنس، ورياض الشوق والقدس.[1]

د. وفي سورة الرحمن عند قوله تعالى: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾[2] يقول: قال جعفر: جعل الحقّ تعالى في قلوب أوليائه رياض أنسه، فغرس فيها أشجار المعرفة أُصولها ثابتة في أسرارهم، وفروعها قائمة بالحضرة في المشهد، فهم يجنون ثمار الأنس في كلّ أوان، وهو قوله تعالى: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ أي ذات الألوان، كلّ يجتني منه لوناً على قدر سعته، وما كوشف له من بوادي المعرفة و آثار الولاية.[3]

وهاهنا كتب أُخرى أُلّفت على هذا الغرار نظير:

ـ لطائف الإشارات

لأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري (٣٧٦ - ٤٦٥ هـ).

ـ تفسير الخواجة

لعبد الله الأنصاري (المتوفّى٤٨٠ هـ).

ـ كشف الأسرار وعدّة الأبرار

لأبي الفضل رشيد الدين الميبدي، وهو بسط وتوضيح لمباني تفسير الخواجة عبد الله الأنصاري.

ـ تفسير ابن عربي

هو لأبي بكر محيي الدين محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي الطائي الأندلسي المعروف بابن عربي (٥٦٠ - ٦٣٨ هـ).

يقول في تفسير الآية ١٩-٢٠ من سورة الرحمن: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ بأنّ مرج البحرين هو بحر الهيولى الجسمانية الذي هو الملح الأُجاج،

(١) تفسير السلمي: ٢١٢.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ١١.
(٣) تفسير السلمي: ٣٤٤.

وبحر الروح المجرد هو العذب الفرات، يلتقيان في الموجود الإنساني، وإنّ بين الهيولى الجسمانية والروح المجردة برزخ هو، النفس الحيوانية التي ليست في صفاء الروح المجردة ولطافتها، ولا في كثرة الأجساد الهيولائية وكثافتها، ولكن مع ذلك لا يبغيان، أي لا يتجاوز أحدهما حدّه فيغلب على الآخر بخاصيته، فلا الروح المجردة تجرد البدن وتخرج به وتجعله من جنسه، ولا البدن يجسد الروح ويجعله مادياً[1].

- **عرائس البيان في حقائق القرآن**

لأبي محمد روزبهان بن أبي نصر البقلي الشيرازي (المتوفّى ٦٦٦ هـ).

- **التأويلات النجمية**

لأبي بكر عبد الله الرازي المعروف بـ«**داية**» (المتوفىّ ٦٥٤ هـ). إلى غير ذلك من التفاسير.[2]

وفي الختام نكتفي بما ذكره الذهبي حول هذه التفاسير، وقال:

نحن لا ننكر على ابن عربي أنَّ ثَم أفهاماً يلقيها الله في قلوب أصفيائه وأحبائه، ويخصهم بها دون غيرهم، على تفاوت بينهم في ذلك بمقدار ما بينهم من تفاوت في درجات السلوك ومراتب الوصول، كما لا ننكر عليه أن تكون هذه الأفهام تفسيراً للقرآن وبياناً لمراد الله من كلامه، ولكن بشرط: أن تكون هذه الأفهام يمكن أن تدخل تحت مدلول اللفظ العربي القرآني، وأن يكون لها شاهد شرعي يؤيدها، أمّا أن تكون هذه الأفهام خارجة عن مدلول اللفظ القرآني وليس لها من الشرع ما يؤيدها فذلك ما لا يمكن أن نقبله على أنّه تفسير للآية وبيان لمراد الله تعالى، لأنّ القرآن عربي قبل كلّ شيء كما قلنا، والله سبحانه و تعالى يقول في شأنه: ﴿**كتابٌ فُصِّلت آياتُهُ قُرآناً عَرَبِيّاً لقوم**

(١) تفسير ابن عربي: ٢/٢٨٠.
(٢) وقد رصدرنا في تحرير هذا الموضوع عن كتاب التفسير والمفسرون، للمحقّق الأُستاذ محمد هادي معرفة دام ظله.

يَعْلَمُون﴾ [1] وحاشا لله أن يلغز في آياته أو يعمى على عباده طريق النظر في كتابه، وهو يقول: **﴿وَلَقَد يَسَّرنا القُرآنَ للذِّكْرِ فَهَل مِنْ مُدّكِر﴾**[2]. [3]

التفسير الإشاري بين القبول والرفض

هناك منهج اصطلحوا عليه بالتفسير الإشاري وهو نفس التفسير الصوفي، وعرّفوه بأنّ نصوص القرآن محمولة على ظواهرها ومع ذلك ففيها إشارات خفية إلى دقائق تتكشف على أرباب السلوك ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة. [4]

وبعبارة أُخرى: ما يظهر من الآيات بمقتضى إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك ويمكن التطبيق بينها و بين الظواهر المرادة.

وبعبارة ثالثة: القائل بالتفسير الإشاري لا ينكر كون الظاهر مراداً، ولكن يقول بأنّ في هذه الظواهر، إشارات إلى معانٍ خفية تفهمه عدّة من أرباب السلوك وأُولو العقل والنهى، وبذاك يمتاز عن تفسير الباطنية فإنّهم يرفضون كون الظواهر مرادة ويأخذون بالبواطن، هذا هو حاصل التفسير الإشاري.

واستدلّ القائلون بالتفسير الإشاري بوجهين:

الأوّل: إنَّ القرآن يدعو إلى التدبّر والتفكّر فيه، ومعنى ذلك هو أَنّ القرآن يحتوي على معانٍ وحقائق لا تدرك بالنظر الأُولى، بل لابدّ من التأمّل والتعمّق حتى يقف الإنسان على إشاراته ورموزه، يقول سبحانه:

﴿فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾. [5]

(١) سورة فصلت، الآية: ٣. .
(٢) سورة القمر، الآية: ١٧.
(٣) التفسير والمفسرون: ٢/٢٧٤.
(٤) سعد الدين التفتازاني: شرح العقائد النسفية: ١٤٢.
(٥) سورة النساء، الآية: ٧٨.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدبّرونَ القُرآنَ ولَو كانَ مِنْ عِندِ غَيرِ اللهِ لوجَدُوا فِيهِ اختلافاً كَثِيراً﴾.[1]

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.[2]

فهذه الآيات تصف الكافرين بأنّهم لا يكادون يفقهون حديثاً لا يريد بذلك أنّهم لا يفهمون نفس الكلام، لأنّ القوم كانوا عرباً والقرآن لم يخرج عن لغتهم فهم يفهمون ظاهره بلا شك، وإنّما أراد بذلك أنّهم لا يفهمون مراده من الخطاب، فحضّهم على أن يتدبّروا في آياته حتى يقفوا على مقصود الله ومراده، وذلك هو الباطن الذي جهلوه ولم يصلوا إليه بعقولهم.[3]

يلاحظ عليه: أوّلاً: إنَّ الاستدلال بهذه الآيات من الضعف بمكان، فانّها تدعو إلى التدبّر في نفس المفاهيم المستفاد من ظاهر الآيات وكون القرآن عربياً، وكون القوم عُرباً لا يكفي في فهم القرآن الكريم من دون التدبّر والإمعان، فهل يكفي كون القوم عرباً في فهم مغزى قوله سبحانه: ﴿هُوَ الأَوّل وَالآخر وَالظّاهر وَالباطن وَهُوَ بِكُلِّ شَيء عَليم﴾[4]؟

أو في فهم قوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[5]؟

أو في فهم قوله سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[6]؟

فالدعوة إلى التدبّر لا يدلّ على أنّ للقرآن وراء ما تفيده ظواهره بطناً.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.
(٢) سورة محمد، الآية: ٢٤.
(٣) التفسير والمفسرون، نقلاً عن الموافقات: ٣/٣٨٢ ـ ٣٨٣.
(٤) سورة الحديد، الآية: ٣.
(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.
(٦) سورة المؤمنون، الآية: ٩١.

وثانياً: أنَّه يمكن أن يكون الأمر بالتدبّر هو تطبيق العمل على ما يفهمونه من القرآن، فربّ ناصح يدلي بكلام فيه نصيحة الأهل والولد، ولكنّهم إذا لم يطبقوا عملهم على قول ناصحهم، يعود الناصح إليهم، ويقول: لماذا لا تتدبّرون في كلامي ؟ لماذا لا تعقلون ؟ مشعراً بذلك أنّكم ما وصلتم إلى ما أدعوكم إليه وإلاّ لتركتم أعمالكم القبيحة وصرتم عاملين بما أدعو إليه.

الثاني: ما دلّ من الروايات على أنّ للقرآن ظهراً وبطناً، ظاهره حكم، وباطنه علم، ظاهره أنيق وباطنه عميق.[1]

يلاحظ عليه: أنّ ما روي عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بأنّ للقرآن بطناً وظهراً فالحديث فيه ذو شجون.

- المقصود من البطن هو أنّ ما ورد في القرآن حول الأقوام والأُمم من القصص، وما أصابهم من النعم والنقم، لا ينحصر على أُولئك الأقوام، بل هؤلاء مظاهر لكلامه سبحانه وهو يعم غيرهم ممّن يأتون في الأجيال فقوله سبحانه: ﴿**وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ**﴾[2] وإن كان وارداً في قوم خاص، لكنّها قاعدة كلية مضروبة على الأُمم جمعاء.

- المراد من بطن القرآن هو الاهتداء إلى المصاديق الخفية التي يحتاج الوصول إليها إلى التدبّر، أو تنصيص من الإمام، ولأجل ذلك نرى أنّ علياً عليه السلام يقول في تفسير قوله سبحانه: ﴿**وإن نَكَثُوا أيْمانَهُم مِن بَعدِ عَهدِهِم وطَعَنُوا في دِينِكُم فَقاتِلُوا أئِمَّةَ الكُفْرِ إنَّهُم لا أيْمانَ لَهُم لَعَلَّهُم يَنتَهُون**﴾[3]: «**إنّه ما قوتل أهلها منذ نزلت حتى اليوم**».

(١) الكافي: ٢/ ٥٩٨ الحديث ٢.
(٢) سورة النحل، الآيات: ١١٢- ١١٣.
(٣) سورة التوبة، الآية: ١٢.

وفي رواية أُخرى قال علي عليه السلام: «**عذرني الله من طلحة والزبير بايعاني طائعين، غير مكرهين، ثم نكثا بيعتي من غير حدث أحدثته**» ثم تلا هذه الآية[1].

- وهناك احتمال ثالث للبطن، وهو حمل الآية على مراتب مفهومها وسعة معناها واختلاف الناس في الاستفادة منها حسب استعداداتهم وقابلياتهم، لاحظ قوله سبحانه: **﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ﴾**.[2]

إنّ للآية مراتب ودرجات من التفسير كل يستفيد منها حسب قابليته والكل يستمد من الظاهر، ونظيرها آية النور.[3] فقد خاض المفسرون في تفسير الآية وتطبيقها على موارد مختلفة وكل استفاد من نورها حسب مؤهّلاته وكفاءاته.

وحاصل القول في التفسير الإشاري: إنّ ما يفهمه المفسّر من المعاني الدقيقة إن كان لها صلة بالظاهر فهو مقبول، سواء سمّي تفسيراً على حسب الظاهر أم تفسيراً إشارياً، وعلى كل تقدير فالمفسّر على حجّة من ربّه في حمل الآية على ما أدرك، وأمّا إذا كان مقطوع الصلة عن الظاهر، المتبادر إلى الأذهان، فلا يصح له حمل القرآن عليه إلاّ إذا حصل له القطع بأنّه المراد، وعندئذ يكون القطع حجّة له لا لغيره وإن كان مخالفاً للواقع، ولإيضاح الحال نأتي بأمثلة:

يخاطب سبحانه أُمّ المسيح بقوله: **﴿وهُزّي إِلَيكِ بِجِذعِ النَّخلَةِ تُساقِطْ عَلَيكِ رُطباً جَنِيّاً﴾**.[4]

فلو قال أحد: إنّه سبحانه هيّأ مقدّمات الولادة ومؤخّراتها لأُمّ المسيح، حتى الرطب في غير فصله من الشجرة اليابسة، ومع ذلك أمرها أن تهُزَّ بجذع النخلة مع أنّ في وسع

(١) البرهان في تفسير القرآن: ١٠٥/١ .
(٢) سورة الرعد، الآية: ١٧.
(٣) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٤) سورة مريم، الآية: ٢٥.

المولى سبحانه أن يرزقها الرطب بلا حاجة إلى الهز، ـ أمرها بالهزّ ـ هذا لتفهيمها أنّها مسؤولة في حياتها عن معاشها، وأنّه سبحانه لو هيّأ كل المقدّمات فلا تغني عن سعيها وحركتها ولو بالهز بجذع النخلة.

هذا ربما ما يعلق بذهن بعض المفسّرين، ولا بأس به، لأنّ له صلة بالظاهر.

روي أنّه بعدما نزل قوله سبحانه: ﴿**اليومَ أكمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأتمَمتُ عَليكُمْ نِعمَتي وَرَضيتُ لَكُمُ الإسلامَ ديناً**﴾[1] فرحَ الصحابة وبكى بعضهم فقال: الآية تنعي إلينا برحلة النبي[2] ﷺ وكأنّه فهم الملازمة بين إكمال الدين ورحلة النبي ﷺ.

نعم هناك تفاسير باسم التفسير الإشاري لا يصح إسناده إلى الله سبحانه، كتفسير «الم» بأنّ الألف إشارة إلى الله واللام إلى جبرئيل والميم إلى محمّد ﷺ، فإنّه أشبه بالتفسير بالرأي إلاّ إذا كان هناك نصّ من المعصوم.

ولو صحّ هذا التفسير، فيمكن تفسيره بوجوه كثيرة بأنّ يقال الألف إشارة إلى ألف الوحدانية، واللام إلى لام اللطف، والميم إشارة إلى الملك، فمعنى الكلمة: من وحّدني تلطفت له فجزيته بالملك الأعلى.

وأسوأ من ذلك تفسير قوله سبحانه: ﴿**وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ**﴾[3] بأن يقال: «**والجار ذي القربى**» هو القلب، «**والجار الجنب**» هو الطبيعة، «**والصاحب بالجنب**» هو العقل المقتدي بالشريعة، «**وابن السبيل**» هو الجوارح المطيعة لله.

فمثل هذا النوع من التفسير يلتحق بتفاسير الباطنية التي مضى البحث فيها.

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.
(٢) الآلوسي: روح المعاني: ٦/٦٠.
(٣) سورة الرعد، الآية: ١٧.

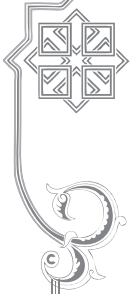

خلاصة

الصورة السادسة من المناهج التفسيرية بالعقل: التفسير حسب تأويلات الصوفية.

هذا التفسير تأثر إلى حد كبير بأفكار الباطنية، واستخدم القرآن في تعقيب هدف خاص وهو دعم الأسس العرفانية والفلسفية، وفي الحقيقة أنهم لم يخدموا القرآن الكريم بشيء وإنما خدموا آرائهم وأفكارهم من خلال تطبيق الآيات على آرائهم.

فالتفسير الصوفي شعبة من شعب التفسير الباطني في قالب معين وهو ينقسم إلى تفسير نظري وفيضي.

أمّا الأول: فهو التفسير المبني على أصول فلسفية ورثوها من أصحابها، فحاولوا تحميل نظرياتهم على القرآن الكريم.

وأما التفسير الفيضي: فهو تأويل الآيات على خلاف ما يظهر منها بمقتضى إشارات رمزية تظهر لأرباب السلوك من غير دعم بحجة أو برهان.

وبتعبير آخر: التفسير الفيضي يرتكز على رياضة روحية يأخذ بها الصوفي نفسه حتى يصل بها إلى درجة تنهل على قلبه من سحب الغيب ما تحمله الآيات من المعارف الالهية، وعلى كل تقدير فتفاسيرهم من غير فرق بين النظري والفيضي مبنية على حمل القرآن على ما يعتقدون به من الأصول والقواعد من دون حجة وبرهان.

نموذج ذلك ما ورد في تفسير التستري حيث يفسر البسملة بالشكل التالي:

الباء: بهاء الله، والسين: سناء الله، والميم: مجد الله، والله: هو الاسم الأعظم الذي حوى الأسماء كلها، وبين الألف واللام منه حرف مكنّى، غيب من غيب إلى غيب، وسر من سر إلى سر.

التفسير بالنقل

وصوره:

١ – تفسير القرآن بالقرآن

٢ – التفسير البياني للقرآن

٣ – تفسير القرآن باللغة والقواعد العربية

٤ – تفسير القرآن بالمأثور عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة عليهم السلام.

الدرس الحادي عشر

١ - تفسير القرآن بالقرآن

إنّ هذا المنهج من أسمى المناهج الصحيحة الكافلة لتبيين المقصود من الآية كيف وقد قال سبحانه :

﴿وَنَزّلْنا عَلَيْكَ الكِتابَ تِبياناً لِكُلِّ شَيء﴾ . [١]

فإذا كان القرآن موضحاً لكل شيء، فهو موضح لنفسه أيضاً، كيف والقرآن كلّه «**هدى**» و «**بيّنة**» و «**فرقان**» و «**نور**» كما في قوله سبحانه:

﴿شَهرُ رَمضانَ الّذي أُنْزِلَ فِيهِ القُرآنُ هُدًى لِلنّاسِ وَبيِّنات مِنَ الهُدى والفُرقان﴾ . [٢]

وقال سبحانه:

﴿وأنزَلنا إلَيكُمْ نُوراً مُبيناً ﴾[٣].

وعن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم : «**إنّ القرآن يصدّق بعضه بعضاً**».

وقال علي عليه السلام في كلام له يصف فيه القرآن: «**كتاب الله تبصرون به، وتنطقون به، وتسمعون به، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض، ولا يختلف في الله ولا يخالف بمصاحبه عن الله**»[٤].

وهذا نظير تفسير المطر الوارد في قوله سبحانه: ﴿وأمطَرنا عَلَيهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ

(١) سورة النحل، الآية: ٨٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٧٤.
(٤) نهج البلاغة: الخطبة ١٢٩.

المُنذَرين﴾[1]، بالحجارة الواردة في آية أُخرى في هذا الشأن قال: ﴿**وأمطَرنا عَلَيهِم حِجارَةً مِن سِجّيل﴾**. [2]

وفي الروايات المأثورة عن أهل البيت نماذج كثيرة من هذا المنهج يقف عليها المتتبع في الآثار الواردة عنهم عند الاستدلال بالآيات على كثير من الأحكام الشرعية الفرعية وغيرها.

وقد قام أحد الفضلاء باستقصاء جميع هذا النوع من الأحاديث المتضمّنة لهذا النمط من التفسير.

ولنذكر بعض النماذج من هذا المنهج.

١ . سأل زرارة ومحمد بن مسلم أبا جعفر عليه السلام عن وجوب القصر في الصلاة في السفر مع أنّه سبحانه يقول: ﴿**وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ**﴾ [3] ولم يقل افعلوا ؟

فأجاب الإمام عليه السلام بقوله: «أو ليس قد قال الله عزّ وجلّ في الصفا والمروة: ﴿**فَمَن حَجَّ البَيتَ أوِ اعتَمرَ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أن يَطَّوَّفَ بِهِما**﴾[4] ألا ترون أنّ الطواف بهما واجب مفروض»[5].

٢ . روى المفيد في إرشاده أنّ عمر أُتي بامرأة قد ولدت لستة أشهر فهمَّ برجمها فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «**إن خاصمتك بكتاب الله خصمتك، إنّ الله تعالى يقول: ﴿وَحَملُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهراً ﴾**[6]. **ويقول: ﴿وَالوالِداتُ يُرضِعنَ أولادَهُنَّ حَولَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَن أراد أن يُتِمَّ الرّضاعَة﴾**. [7] **فإذا تم، أتمّت المرأة الرضاع لسنتين، وكان حمله وفصاله ثلاثين شهراً كان**

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٧٣.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٧٤.
(٣) سورة الاحزاب، الآية: ٥.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٥٨.
(٥) الوسائل: ، الباب ٢٢ من أبواب صلاة المسافر، الحديث ٢.
(٦) سورة الأحقاف، الآية: ١٥.
(٧) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

الحمل منها ستة أشهر»، فخلّى عمر سبيل المرأة. [١]

٣. يقول سبحانه: ﴿**حم * والكِتاب المُبين * إنّا أَنْزَلْناهُ في لَيْلَة مُبارَكة**﴾. [٢]

فالآية تدل على أنّ القرآن نزل في ليلة مباركة، وأمّا أيّة ليلة تلك، وفي أي شهر فيستفاد من ضم آيتين أُخريين، يقول سبحانه: ﴿**إنّا أَنْزَلْناهُ في لَيْلَة القَدْر**﴾ [٣] وقوله سبحانه: ﴿**شَهْرُ رَمَضان الَّذي أُنْزلَ فيه القُرآن**﴾ [٤] فمن ضم هذه الآيات الثلاثة يستفاد أنَّ القرآن في ليلة مباركة هي ليلة القدر من شهر رمضان.

٤. يقول سبحانه: ﴿**يا أَيُّهَا الّذينَ آمَنُوا اسْتَجيبُوا لله وَلِلرَّسُول إذا دَعاكُمْ لِما يُحْييكُمْ وَاعْلَمُوا انَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِه**﴾. [٥]

غير أنَّ حيلولته سبحانه بين المرء وقلبه يعلوه إبهام يفسره، قوله سبحانه: ﴿**وَلا تَكُونُوا كَالّذينَ نَسُوا الله فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولئكَ هُمُ الْفاسقُون**﴾. [٦]

فإنساء الذات الذي هو فعله تعالى عبارة عن حيلولته بين المرء وقلبه، ومن نسي ذاته فقد أهلك نفسه.

٥. يقول سبحانه: ﴿**أَوَ لَمْ يَرَوا انّا نَأْتي الأَرْض نَنْقُصها مِنْ أَطْرافِها وَالله يَحْكُمُ لا مُعقِّب لِحُكْمِه وَهُوَ سَريعُ الحساب**﴾[٧] ولا شكّ أنَّ الأرض لا تنقص بل ربما تزيد كالسماء في قوله سبحانه: ﴿**وَالسَّماء بَنَيْناها بِأَيْد وَانّا لَمُوسعُون**﴾ [٨]، ولكن يرتفع الإبهام بآية أُخرى حيث أطلق وأُريد منها البلد العامر، يقول: ﴿**إنّمّا جَزاءُ الّذينَ يُحارِبُونَ الله وَرَسُولَهُ وَيَسْعَونَ في الأَرْض فَساداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَو يُصلّبوا أَو تقطّع أَيديهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ**

(١) نور الثقلين: ١٤/٥ ؛ الدر المنثور للسيوطي: ٤٤١/٧، طبع دار الفكر بيروت.
(٢) سورة الدخان، الآيات: ١-٣.
(٣) سورة القدر، الآية: ١.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.
(٥) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.
(٦) سورة الحشر، الآية: ١٩.
(٧) سورة الرعد، الآية: ٤١.
(٨) سورة الذاريات، الآية: ٤٧.

مِنْ خِلاف أَو ينفوا من الأَرض ذلكَ لَهُمْ خِزي فِي الدُّنيا وَلَهُمْ فِي الآخرة عَذابٌ عَظيم﴾[1] فإنَّ المراد من الأرض هو البلد العامر الذي يقطن فيها المحارب فينفى منها ليعيش بين البراري والقفار.

وأمّا النقص فتفسره السنّة، كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال: «**فقد العلماء، وموت علمائها**».[2]

٦. يقول سبحانه: **﴿وَالسّارِقُ وَالسّارِقَة فَاقْطَعُوا أَيديَهُما جَزاءً بِما كَسَبا نَكالاً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزيزٌ حَكيم﴾**.

فقد أطلق اليد وأبهم المراد منه حيث إنّها تطلق على خصوص الأصابع، على خصوص الكف وعليه إلى المرافق، وإلى الكتف، فيرفع الإبهام بقوله سبحانه: **﴿وَانّ المساجِدَ لله فَلا تَدْعُوا مَع الله أَحداً﴾**[3] حيث إنّ المستفاد منه على أنّ مواضع السجود لله، وراحة الكف من مواضع السجود، وما كان لله لا يقطع.

٧. يقول سبحانه: **﴿إنّا عَرَضْنا الأَمانَة عَلى السَّموات وَالأَرْض وَالجبال فَأَبين أَنْ يَحْملْنها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَها الإنْسان إنّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾**[4]، فالآية تدلّ على كرامة الإنسان، بحيث أُهل لحمل الأمانة.

وأمّا ما هو المراد من تلك الأمانة فيفسرها قوله سبحانه: **﴿وَإذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائكة انّي جاعِلٌ في الأَرْض خَليفَة﴾**[5]، فخلافة الإنسان عن الله سبحانه هي الأمانة التي وصفها الله سبحانه على عاتق الإنسان، فبما أنَّه خليفة لله سبحانه يجب أن يكون بصفاته وأفعاله مظهراً لصفات الله وأسمائه وأفعاله.

إلى غير ذلك من الآيات التي يفسر بعضها بعضاً من دون رأي مسبق.

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٣.
(٢) البرهان: ٢/٣٠٢، رقم الحديث: .
(٣) سورة المائدة، الآية: ٣٨.
(٤) سورة الجن، الآية: ١٨.
(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٧١.

أقول: هذا النمط من التفسير كما يتحقّق بالتفسير الموضوعي، أي تفسير القرآن حسب الموضوعات، يتحقّق بالتفسير التجزيئي، أي حسب السور، سورة بعد سورة، وهذا هو تفسير «الميزان» كتب على نمط تفسير القرآن بالقرآن، لكن على حسب السور، دون الموضوعات، فبيّن إبهام الآية بآية أُختها.

ولكن الصورة الكاملة لهذا النمط من التفسير يستدعي الإحاطة بالقرآن الكريم، وجمع الآيات الواردة في موضوع واحد، حتى تتجلّى الحقيقة من ضمِّ بعضها إلى بعض، واستنطاق بعضها ببعض، فيجب على القائم بهذا النمط، تفسير القرآن على حسب الموضوعات، وهو نمط جليل يحتاج إلى عناء كثير، وقد قام العلامة المجلسي برفع بعض مشاكل هذا النمط فجمع الآيات الواردة في كل موضوع حسب الأبواب.

ولو انتشر هذا القسم من البحار في جزء مستقل ربّما يكون مفتاحاً للتفسير الموضوعي فهو قُدِّسَ سِرُّهُ قد استخرج الآيات حسب الموضوعات، وشرحها بوجه إجمالي.

ولكن النمط الأوسط منه هو قراءة القرآن من أوّله إلى آخره، والدقة في مقاصد الآيات، ثم تصنيف الآيات حسب ما ورد فيها من الأبحاث والموضوعات، ففي هذا النوع من التفسير تستخرج الموضوعات من الآيات ثم تصنّف الآيات حسب الموضوعات المستخرجة، وهذا بخلاف ما قام به العلامة المجلسي، فهو صنّف الآيات حسب الموضوعات على ضوء ما جادت بها فكرته، أو جاءت في كتب الأحاديث والأخبار.

وهذا النمط من التفسير لا يعني قول القائل: «**حسبنا كتاب الله**» المجمع على بطلانه عند عامة المسلمين، لاهتمامهم بالسنّة مثل اهتمامهم بالقرآن، وإنّما يعني أنّ مشاكل القرآن ومبهماته ترتفع من ذلك الجانب.

وأمّا أنّه كاف لرفع جميع المبهمات حتى مجملات الآية ومطلقاتها فلا، إذ لا شك أنّ المجملات كالصلاة والزكاة تبيّن بالسنّة والعمومات تخصّص بها، والمطلقات تقيّد بالأخبار، إلى غير ذلك من موارد الحاجة إلى السنّة.

هذا بعض الكلام في هذا المنهج، وقد وقع مورد العناية في هذا العصر.

وإنّ تفسير ابن كثير يستمد من هذا النمط أي تفسير الآيات بالآيات بين الحين والآخر، كما أنّ الشيخ محمد عبده في تفسيره الذي حرر بقلم تلميذه اتّبع هذا المنهج في بعض الأحايين.

والأكمل من التفسيرين في اتّباع هذا المنهج هو تفسير السيد العلامة الطباطبائي قدس سره فقد بنى تفسيره «**الميزان**» على تفسير الآية بالآية.

غير أنّ هذه التفاسير الثلاثة كما عرفت كتبت على نحو التفسير التجزيئي، أي تفسير القرآن سورة بعد سورة لا على تفسيره حسب الموضوعات.

وعلى كل تقدير فتفسير القرآن بالقرآن يتحقّق على النمط الموضوعي كما يتحقّق على النمط التجزيئي غير أنّ الأكمل هو اقتفاء النمط الأوّل.

خلاصة

الصورة الأولى من المناهج التفسيرية النقلية: تفسير القرآن بالقرآن.

هذا المنهج من أسمى المناهج الصحيحة الكافلة لتبيين المقصود من الآية كيف وقد قال سبحانه: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ**﴾[1] فإذا كان القرآن موضحاً لكل شيء فهو موضع لنفسه أيضاً، كيف والقرآن كله «**هدى**» و «**بينة**» و «**فرقان**» و «**نور**» ورد في القرآن الكريم وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّ القرآن يصدّق بعضه بعضاً**».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في كلام يصف فيه القرآن: «**كتاب الله تبصرون به، وتنطقون به، وتسمعون به، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض، ولا**

(١) سورة النحل، الآية: ٨٩.

يختلف في الله ولا يخالف بمصاحبه عن الله».

وهذا نظير تفسير المطر الوارد في قوله سبحانه: ﴿**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ**﴾[1] بالحجارة الواردة في آية أخرى في هذا الشأن قال: ﴿**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ**﴾ [2] وفي الروايات المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام نماذج كثيرة في هذا المنهج.

هذا النمط من التفسير كما يتحقق بالتفسير الموضوعي، أي تفسير القرآن حسب الموضوعات، يتحقق بالتفسير التجزيئي، أي حسب السور، سورة بعد سورة، وهذا هو تفسير «**الميزان**» كتب على نمط تفسير القرآن بالقرآن، ولكن على حسب السور، دون الموضوعات، فبيّن إبهام الآية بآية أختها.

وعلى كل تقدير فتفسير القرآن بالقرآن يتحقق على النمط الموضوعي كما يتحقق على النمط التجزيئي غير أن الأكمل هو اقتفاء النمط الأول.

(١) سورة الشعراء، الآية : ١٧٣.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٧٤.

الدرس الثاني عشر

٢ - التفسير البياني للقرآن

هذا المنهج الذي ابتكره حسب ما تدّعيه الدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ أُستاذها الأمين الخولي المصري، عبارة عن استقراء اللفظ القرآني في كل مواضع وروده للوصول إلى دلالته وعرض الظاهرة الأسلوبية على كل نظائرها في الكتاب المحكم، وتدبّر سياقها الخاص في الآية والسورة ثم سياقها العام في المصحف كلّه التماساً لسرّه البياني.

وحاصل هذا المنهج يدور على ضوابط، وهي.

ألف: التناول الموضوعي لما يراد فهمه من القرآن، ويُبدأ بجمع كل ما في الكتاب المحكم من سور وآيات في الموضوع المدروس.

ب: ترتّب الآيات فيه حسب نزولها، لمعرفة ظروف الزمان والمكان كما يستأنس بالمرويات في أسباب النزول من حيث هي قرائن لابست نزول الآية دون أن يفوت المفسّر أنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب الذي نزلت فيه الآية.

ج: في فهم دلالات الألفاظ يُقدّر أنّ العربية هي لغة القرآن، فتلتمس الدلالة اللغوية الأصلية التي تعطينا حس العربية للمادة في مختلف استعمالاتها الحسية والمجازية.

ثم يخلص لِلَمحِ الدلالة القرآنية بجمع كل ما في القرآن من صيغ اللفظ وتدبّر سياقها الخاص في الآية والسورة وسياقها العام في القرآن كله.

د: وفي فهم أسرار التعبير يحتكم إلى سياق النص في الكتاب المحكم ملتزمين ما يحتمله نصاً وروحاً، ويعرض عليه أقوال المفسّرين فيقبل منها ما يقبله النص.

هذا خلاصة هذا المنهج الذي ابتكره الأُستاذ الخولي المصري واقتفت أثره تلميذته بنت الشاطئ، فخرج من هذا المنهج كتاب باسم «**التفسير البياني للقرآن الكريم**» في جزئين تناول تفسير السور التالية في الجزء الأوّل: «**الضحى، والشرح، الزلزلة، النازعات، العاديات، البلد، التكاثر**» كما تناول في الجزء الثاني تفسير السور التالية: «**العلق، القلم، العصر، الليل، الفجر، الهمز، الماعون**».

ولا شك أنّه نمط بديع بين التفاسير، إذ لا يماثل شيئاً مما أُلّف في القرون الماضية من زمن الطبري إلى العصر الأخير الذي عرف فيه تفسير الإمام عبده وتفسير المراغي، فهذا النمط لا يشابه التفاسير السابقة، غير أنّه لون من التفسير الموضوعي أوّلاً، وتفسير القرآن بالقرآن ثانياً، والنقطة البارزة في هذا النمط هو استقراء اللفظ القرآني في كل مواضع وروده في الكتاب.

وبعبارة أُخرى: يهتم المفسّر في فهم لغة القرآن بالتتبع في جميع صيغ هذا اللفظ الواردة في القرآن الكريم ثم يخرج من ضمّ بعض إلى بعض بحقيقة المعنى اللغوي الأصيل، وهو لا يترك هذا العمل حتى في أوضح الألفاظ. مثلاً تتبع في تفسير قوله سبحانه: ﴿**أَلَم نَشرَح لَكَ صَدرَكَ**﴾ كل آية ورد فيها مادة «الشرح» بصورها، أو كل آية ورد فيها مادة «**الصدر**» بصيغه المختلفة، وهكذا في كل كلمة حتى وإن كان معناها واضحاً عندنا لكنّه لايعتني بهذا الوضوح، بل يرجع إلى نفس القرآن ثم يطبّق عليه سائر الضوابط من تدبّر سياق الآية وسياق السورة، وسياق الآية العام في القرآن كله.

والذي يؤخذ على هذا النوع من التفسير فمع أنّه أمر بديع قابل للاعتماد، غير أنّه لا يكفي في تفسير الآيات الفقهية بلا مراجعة السنّة، لأنّها عمومات فيها مخصصها، أو مطلقات فيها مقيدها، أو مجملات فيها مبينها.

نعم هذا النمط من التفسير يُغني عن كثير من الأبحاث اللغوية التي طرحها

المفسرون، لأنّ المفسّر في هذا النمط يريد أن يستخرج معنى اللفظ من التدبّر في النص القرآني، نعم معاجم العربية وكتب التفسير تعينه في بداية الأمر.

وربما يوجد في روايات أهل البيت في مواضع، هذا النوع من النمط، وهو الدقة في خصوصيات الآية وجملها ومفرداتها.

١ – روى الصدوق بإسناده عن زرارة قال:

قلت لأبي جعفر عليه السلام: ألا تخبرني من أين علمت وقلت: إنّ المسح ببعض الرأس وبعض الرجلين؟ فضحك فقال: «**يا زرارة قاله رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم **ونزل به الكتاب من الله عزّ وجلّ، لأنّ الله عزّ وجلّ قال: ﴿فاغْسلُوا وُجُوهَكُم﴾ فعرفنا أنّ الوجه كلّه ينبغي أنّ يغسل**»، ثم قال: ﴿**وأيْدِيَكُمْ إلى المَرَافِق**﴾ فعرفنا أنّه ينبغي لهما أن يغسلا إلى المرفقين، ثم فصل بين الكلامين فقال: «﴿**وامسَحُوا بِرؤُوسِكُم**﴾ **أنّ المسح ببعض الرأس لمكان «الباء»** ثم وصل الرجلين بالرأس، فعرفنا حين وصلهما بالرأس أنّ المسح على بعضهما، ثم فسر ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للناس فضيّعوه»[1].

٢ – روى الكليني بسند صحيح عن حمّاد بن عيسى، عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه سئل عن التيمّم، فتلا هذه الآية: ﴿**والسّارِقُ والسّارِقَةُ فاقطَعُوا أيْدِيَهُما**﴾ وقال: ﴿**فاغسلُوا وجُوهَكُمْ وأيْدِيَكُمْ إلى المَرَافِق**﴾ قال: فامسح على كفّيك من حيث موضع القطع.[2]

فقد استظهر الإمام في التيمّم كفاية المسح على الكفين بحجّة أنّه أطلق الأيدي في آية السرقة والتيمّم ولم تقيّد بالمرافق وقال: ﴿**فَلَم تَجِدُوا ماءً فتَيَمَّمُوا صَعيداً طَيّباً فَامسَحُوا بِوجُوهِكُم وأيْدِيكُم منه**﴾[3] فعلم أنّ القطع والتيمّم ليس من المرفقين.

(١) الوسائل: ١، الباب ٢٣ من أبواب الوضوء، الحديث١ . والآية ٦ من سورة المائدة.
(٢) الوسائل: ٢، الباب ١٣ من أبواب التيمم، الحديث٢ . والآية ٣٨ و ٦ من سورة المائدة.
(٣) سورة المائدة، الآية:٦ .

وأمّا التعبير عن الزند بموضع القطع ـ مع أنَّه ليس موضع القطع عند السرقة كما مرّ ـ فإنما هو لأجل إفهام مبدأ المسح بالتعبير الراسخ ذلك اليوم، أي موضع القطع عند القوم.

سأل أبو بصير أحد الصادقين عليه السلام هل كانت صلاة النبي إلى بيت المقدس بأمر الله سبحانه أو لا؟ قال: «نعم، ألا ترى أنّ الله تعالى يقول: ﴿**وَما جَعَلنا القِبْلَةَ التي كُنْتَ عَلَيها إلاّ لِنَعلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُول**﴾[1].

خلاصة

الصورة الثانية من المناهج التفسيرية النقلية: التفسير البياني للقرآن.

هذا المنهج الذي ابتكره حسب ما تدّعيه الدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطيء أستاذها الأمين الخولي المصري وهو عبارة عن استقراء اللفظ القرآني في كل مواضع وروده للوصول إلى دلالته وعرض الظاهرة الأسلوبية على كل نظائرها في الكتاب المحكم، وتدبر سياقها الخاص في الآية والسورة ثم سياقها العام في المصحف كله التماساً لسرّه البياني.

ضوابطه هي:

١ – التناول الموضوعي لما يراد فهمه من القرآن.

٢ – ترتّب الآيات فيه حسب نزولها.

٣ – نتلمس الدلالة اللغوية للألفاظ من خلال اللغة العربية التي هي لغة القرآن.

٤ – يحتكم إلى سياق النص في فهم أسرار التعبير في الكتاب المحكم ملتزمين ما يحتمله نصاً وروحاً، ويعرض عليه أقوال المفسّرين فيقبل منها ما يقبله النص.

(١) الوسائل: ٣، الباب ٢ من أبواب القبلة، الحديث٢ . والآية ١٤٣ من سورة البقرة.

في هذا المنهج يهتم المفسّر في فهم لغة القرآن بالتتبع في جميع صيغ هذا اللفظ الواردة في القرآن الكريم ثم يخرج من ضم بعض إلى بعض بحقيقة المعنى اللغوي الأصيل، مثلاً التتبع في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ كل آية ورد فيها مادة «الشرح» بصورها، أو كل آية ورد فيها مادة «الصدر» بصيغه المختلفة.

والذي يؤخذ على هذا النوع من التفسير فمع أنه أمر بديع قابل للاعتماد، غير أنه لا يكفي في تفسير الآيات الفقهية بلا مراجعة السنّة، لأنها عمومات فيها مخصصها، أو مطلقات فيها مقيدها، أو مجملات فيها مبينها.

الدرس الثالث عشر

٣ - تفسير القرآن باللغة والقواعد العربية

ففي هذا المنهج يهتم المفسّر اهتماماً شديداً بالقراءة حتى يقف على الصحيح منها، لأنّه ينبعث عن تحريف القراءة، تحريف اللفظ القرآني المنزل، ومن ثمّ تحريف المعنى.

فالحرص على سلامة المنطق حرص على سلامة معنى النص القرآني، وصيانته من الشبهة أو التحريف.

والاهتمام بالقراءة يستدعي ـ منطقياً ـ الاهتمام بالصنعة النحوية، في النص القرآني إذ أنّ هذا الاهتمام بضبط أواخر الكلمات، إنّما يقصد أساساً إلى المعنى، فعلى المعنى يدور ضبط الكلمة وإعرابها، فالفاعل يرفع والمفعول به ينصب وما لحقه من الجر بسبب من أسبابه يجر.

فالتفات النحويين إلى إعراب القرآن كان التفاتاً طبيعياً، لأنّ الغاية من وضع النحو هو خدمة معنى القرآن وتحليته.

ففي ضوء ضبط القراءة ثم ضبط الإعراب القرآني، يتضح مفاد الآية في هذا الإطار الخاص، مضافاً إلى تحقيق مفردات الآية لغوياً، وتوضيح معانيها الأصيلة.

وعلى هذا النمط تجد التفاسير الآتية:

١ -«**معاني القرآن**»: تأليف ابن زكريا يحيى بن زياد الفرّاء (المتوفّى ٢٠٧ هـ) ففسر مشكل إعراب القرآن ومعانيه على هذا المنهج، وقد طبع الكتاب في جزئين، حقّقهما محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاتي.

ويبدو من ديباجة الكتاب أنّ الفرّاء شرع في تأليفه سنة (٢٠٤ هـ).

والكتاب قيّم في نوعه، وإن كان غير واف بعامة مقاصد القرآن الكريم.

٢ - «**مجاز القرآن**» لأبي عبيدة معمر بن المثنى (المتوفّى ٢١٣ هـ) وقيل غير ذلك.

يقول في مقدّمة الكتاب: قالوا: إنّما أُنزل القرآن بلسان عربي ومصداق ذلك في آية من القرآن، وفي آية أُخرى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ**﴾ [١] فَلم يحتج السلف ولا الّذين أدركوا وحيه إلى النبي أن يسألوا عن معانيه، لأنّهم كانوا عرب الألسن، فاستغنوا بعلمهم به عن المسألة عن معانيه، وعمّا فيه ممّا في كلام العرب من وجوه الإعراب، ومن الغريب والمعاني.

وهذا يعرب عن أنّه كان معتقداً بأنّ الإحاطة باللغة العربية، كافية في إخراج معاني القرآن وهو كما ترى.

نعم القرآن نمط من التعبير العربي لكن ليس كل تعبير عربي غنياً عن البيان، خصوصاً في مجال التشريع والتقنين الذي نرى تفصيله في السنّة.

ولا يقصد أبو عبيدة من المجاز ما يقابل الحقيقة، بل يريد ما يتوقف فهم الآية على تقدير محذوف، وما شابه ذلك، وهو على غرار «**مجازات القرآن**» للشريف الرضي - رضوان الله عليه - ولكن الشريف خصّص كتابه بالمجاز بشكله المصطلح.

مثلاً يقول أبو عبيدة: ومن المحتمل من مجاز ما اختصر وفيه مضمر، قال: ﴿**وانطَلَقَ المَلأُ مِنهُم أَنِ امشُوا وَاصبِرُوا**﴾ [٢] فهذا مختصر فيه ضمير مجازه: «وانطلق الملأ منهم» ثم اختصر إلى فعلهم وأضمر فيه وتواصوا أن امشوا أو تنادوا أن امشوا أو نحو ذلك.

وفي آية أُخرى: ﴿**ماذا أَرادَ اللهُ بِهذا مَثَلاً**﴾ [٣] فهذا من قول الكفّار، ثم اختصر إلى قول

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤.
(٢) سورة ص، الآية: ٦.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦.

الله، وأُضمر فيه قل يا محمّد، ﴿**يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً**﴾ [1] فهذا من كلام الله.

ومن مجاز ما حُذف وفيه مضمر، قال: ﴿**واسْئَلِ القَرْيَةَ التي كُنَّا فِيها والعِيرَ التي أَقبَلْنا فِيها**﴾، [2] فهذا محذوف فيه ضمير مجازه: واسأل أهل القرية، ومَن في العير.

وقد طبع الكتاب وانتشر.

«**معاني القرآن**» لأبي إسحاق الزَّجَّاج (المتوفّى ٣١١ هـ) يحدّد ابن النديم تاريخ تأليف هذا الكتاب في نص قرأه على ظهر كتاب المعاني: ابتدأ أبو إسحاق إملاء كتابه الموسوم بمعاني القرآن في صفر سنة ٢٨٥ هـ وأتمّه في شهر ربيع الأوّل سنة ٣٠١ هـ.

والكتاب بعد مخطوط ومنه نسخ متفرقة في المكتبات.

«**تلخيص البيان في مجازات القرآن**»: تأليف الشريف الرضي أبي الحسن، محمد بن الحسين (٣٥٩ - ٤٠٦ هـ).

يقول في أوّله: إنّ بعض الإخوان جاراني وذكر ما يشتمل عليه القرآن من عجائب الاستعارات وغرائب المجازات، التي هي أحسن من الحقائق مَعْرضاً، وأنفع للعلة معنى ولفظاً، وإنّ اللفظة التي وقعت مستعارة لو أوقعت في موقعها، لفظة الحقيقة لكان موضعها نابياً بها، ونصابها قلقاً بمركّبها، إذا كان الحكيم سبحانه لم يورد ألفاظ المجازات لضيق العبارة عليه، ولكن لأنّها أجلى في أسماع السامعين، وأشبه بلغة المخاطبين، وسألني أن أجرد جميع ما في القرآن في ذلك على ترتيب السور ليكون اجتماعه أجل موقعاً وأعم نفعاً، وليكون في ذلك أيضاً فائدة أُخرى.

(إلى أن قال) وقد أوردت في كتابي الكبير «**حقائق التأويل في متشابه التأويل**» طرفاً كبيراً من هذا الجنس، أطلتُ الكلام والتنبيه على غوامض العجائب التي فيه من غير استقصاء أوانه[3].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٢.

(٣) تلخيص البيان في مجازات القرآن: ٢، طبع عالم الكتب.

وبهذا البيان امتاز نمط هذا التأليف عمّا ألّفه أبو عبيدة وأسماه بمجاز القرآن.

فالشريف يروم من المجاز القسم المصطلح، ولكنّ أبا عبيدة يروم الكلام الخارج على غير النمط العادي من حذف وتقدير وتأخير، وإضمار وغير ذلك.

خلاصة

الصورة الثالثة من المناهج التفسيرية النقلية: تفسير القرآن باللغة والقواعد العربية.

هذا المنهج يهتم المفسّر اهتماماً شديداً بالقراءة حتى يقف على الصحيح منها، لأنه ينبعث عن تحريف القراءة، تحريف اللفظ القرآني المنزل، ومن ثم تحريف المعنى.

فالحرص على سلامة المنطق حرص على سلامة معنى النص القرآني، وصيانته من الشبهة أو التحريف، والتفات النحويين إلى إعراب القرآن كان التفاتاً طبيعياً، لأنَّ الغاية من وضع النحو هو خدمة معنى القرآن وتحليته.

ففي ضوء ضبط القراءة ثم ضبط الإعراب القرآني، يتضح مفاد الآية في هذا الإطار الخاص، مضافاً إلى تحقيق مفردات الآية لغوياً وتوضيح معانيها الأصيلة.

وعلى هذا النمط تجد تفسير «مجاز القرآن» لأبي عبيدة معمر بن المثنى، فمثلاً من مجاز ما حذف وفيه مضمر، قال: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾[1] فهذا محذوف فيه ضمير مجازه: واسأل أهل القرية، ومن في العير.

(١) سورة يوسف، الآية : ٨٢.

الدرس الرابع عشر

٤ - تفسير القرآن بالمأثور عن النبي والأئمة عليهم السلام

ومن التفسير بالمنقول هو تفسير القرآن بما أثر عن النبي والأئمة المعصومين عليهم السلام أو الصحابة والتابعين، وقد ظهر هذا النوع من المنهج بعد رحلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ومن المعروفين في سلوك هذا المنهج بعد عهد الرسالة عبد الله بن عباس، وهو القائل: ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب[١] عليه السلام وحسبك هذه الشهادة من ترجمان القرآن.

نعم روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه دعا له بالفقه والحكمة وتأويل القرآن.[٢]

وقد ذاع هذا المنهج من القرن الأوّل إلى عصرنا هذا، فظهر بين المفسرين من يكتفون في التفسير بالأثر المروي ولا يتجاوزون عنه، حتى أنّ بعض المفسرين لا يذكر الآية التي لا يجد حولها أثراً من النبي والأئمة، كما هو ديدن تفسير البرهان للسيد البحراني، فإليك أشهر التفاسير الحديثة بين الفريقين.

فأشهر المصنّفات على هذا النمط عند أهل السنّة عبارة عن:

١. تفسير أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠ هـ) وهذا الكتاب أوسع ما أُلّف في هذا المجال، ومن مزايا هذا التفسير ذكر الروايات مسندة أو موقوفة على الصحابة والتابعين، وقد سهّل بذلك طريق التحقيق والتثبيت منها، نعم فيها من الإسرائيليّات والمسيحيّات ما لا يحصى كثرة.

(١) مناهل العرفان: ٤٦٨/١ .
(٢) أسد الغابة: ١٩٣/٣ .

٢ . ويليه في التبسط تفسير الثعلبي (المتوفّى ٤٢٧ هـ) باسم «**الكشف والبيان**» وهو تفسير مخطوط، ونسخه قليلة، عسى أن يقيّض الله رجال التحقيق لإخراجه إلى عالم النور، ومؤلّفه من المعترفين بفضائل أهل البيت عليهم السلام، فقد روى نزول كثير من الآيات في حقّ العترة الطاهرة، وينقل عنه كثيراً السيد البحراني في كتبه مثل غاية المرام وتفسير البرهان.

٣ . تفسير الدر المنثور للسيوطي (المتوفّى٩١١ هـ) ففيه ما ذكره الطبري في تفسيره وغيره ويبدو من كتابه «**الإتقان**» أنّه جعله مقدّمة لذلك التفسير، وقد ذكر في خاتمة «**الإتقان**» نبذة من التفسير بالمأثور المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أوّل الفاتحة إلى سورة الناس.

هذه مشاهير التفاسير الحديثية عند أهل السنّة، اكتفينا بذلك روماً للاختصار.

- وأمّا التفسير بالمأثور عند الشيعة، فأشهرها ما يلي:

١ . تفسير محمد بن مسعود العياشي المعاصر للكليني الذي توفّي عام ٣٢٩ هـ، وقد طبع في جزئين، غير أنّ ناسخ الكتاب في القرون السابقة، جنى على الكتاب جناية علمية لاتغتفر حيث أسقط الأسانيد، وأتى بالمتون، وبذلك سدّ على المحقّقين باب التحقيق.

٢ . تفسير علي بن إبراهيم القمي (الذي كان حياً عام ٣٠٧ هـ)، وتفسيره هذا مطبوع قديماً وحديثاً، غير أنّ التفسير ليس لعلي بن إبراهيم القمي وحده، وإنّما هو تفسير ممزوج من تفسيرين، فهو ملفّق مما أملاه علي بن إبراهيم على تلميذه أبي الفضل العباس، وما رواه تلميذه بسنده الخاص، عن أبي الجارود عن الإمام الباقر عليه السلام.

٣ . وقد أُلّف في أواخر القرن الحادي عشر تفسيران بالمنهج المذكور، أعني بهما: «**البرهان في تفسير القرآن**» للسيد هاشم البحراني (المتوفّى ١١٠٧ هـ).

و «**نور الثقلين**» للشيخ عبد علي الحويزي من علماء القرن الحادي عشر.

والاستفادة من التفسير بالمأثور يتوقّف على تحقيق أسناد الروايات، لكثرة تطرق الإسرائيليات والمسيحيات والمجوسيات المروية من مسلمة أهل الكتاب إليها أو مستسلمتهم.

وهناك كلمة قيّمة لابن خلدون يقول: إنّ العرب لم يكونوا أهل كتاب ولاعلم، وإنّما غلبت عليهم البداوة والأُميّة، وإذا تشوّقوا إلى معرفة شيء ممّا تتوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونّات، وبدء الخليقة وأسرار الوجود، فإنّما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدون منهم، وهؤلاء مثل: كعب الأحبار ووهب بن منبه، وعبد الله بن سلام وأمثالهم، فامتلأت التفاسير من المنقولات عنهم وتُلقّيت بالقبول، وتساهل المفسرون في مثل ذلك، وملأوا كتب التفسير بهذه المنقولات، وأصلها كلها ـ كما قلنا ـ من التوراة أو مما كانوا يفترون

ولأجل ذلك ترى أنّ ما أتى به الطبري في تفسيره حول قصة آدم وحواء تطابق ما جاء في التوراة.

والعجب أنّ كتب التفسير مملوءة من أقاويل هؤلاء (أي مسلمة أهل الكتاب) ومن أخذ عنهم، من المسلمين أمثال عكرمة ومجاهد وعطاء والضحاك.

فهؤلاء مضافاً إلى ما ورد فيهم من الجرح والطعن في كتب الرجال المعتبرة عند أهل السنّة، كانوا يأخذون ما أثر عنهم من التفاسير من اليهود والنصارى. [1]

وأمّا ما يتراءى من نقل أقوالهم في تفاسير الشيعة كـ «**التبيان**» لشيخ الطائفة الطوسي، و «**مجمع البيان**» للشيخ الطبرسي، فعذرهم في نقل أقوالهم هو رواجها في تلك العصور والأزمنة بحيث كان الجهل بها نقصاً في التفسير وسبباً لعدم الاعتناء به.

(١) لاحظ آلاء الرحمن: ٤٦/١.

وعلى كل تقدير فالتفسير بالمأثور يتوقف على توفر شرائط الحجية فيه، إلاّ إذا كان الخبر ناظراً إلى بيان كيفية الاستفادة من الآية، ومرشداً إلى القرائن الموجودة فيها، فعندئذ تلاحظ كيفية الاستفادة، فعلى فرض صحة الاستنتاج يؤخذ بالنتيجة وإن كان الخبر غير واجد للشرائط. كما عرفت نماذج منه.

وأمّا إذا كان التفسير مبنياً على التعبّد فلا يؤخذ به إلاّ عند توفر الشرائط.

هذه هي المناهج التفسيرية على وجه الاختصار قد عرفت المقبول والمردود، غير أنّ المنهج الكامل عبارة عن المنهج الذي يعتمد على المناهج الصحيحة، فيعتمد في تفسير القرآن على العقل القطعي الذي هو كالقرينة، كما يفسر القرآن بعضه ببعض ويرفع إبهام الآية بأُختها، ويستفيد من الأثر الصحيح الذي يكون حجّة بينه وبين ربّه، إلى غير ذلك من المناهج التي مر بيانها.

خلاصة

الصورة الرابعة من المناهج التفسيرية النقلية: تفسير القرآن بالمأثور عن النبي والأئمة عليهم السلام.

ظهر هذا النوع من المناهج بعد رحلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن المعروفين في سلوك هذا المنهج بعد عهد الرسالة عبد الله بن عباس، وهو القائل: ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب عليه السلام، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه دعا له بالفقه والحكمة وتأويل القرآن لابن عباس وهو ابن عم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال له: «**اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل**»[1].

وقد ذاع هذا المنهج من القرن الأول إلى عصرنا هذا، فظهر بين المفسرين من يكشفون في التفسير بالأثر المروي ولا يتجاوزون عنه.

والاستفادة من التفسير بالمأثور يتوقف على تحقيق أسناد الروايات، لكثرة تطرق الاسرائيليات والمسيحيات والمجوسيات المروية من مسلمة أهل الكتاب إليها أو مستسلمتهم. والكامل من المناهج عبارة عن المنهج الذي يعتمد على الصحيحة منه، فيعتمد في تفسير القرآن على العقل القطعي الذي هو كالقرينة، كما يفسر القرآن بعضه ببعض ويرفع إبهام الآية بأختها، ويستفيد من الأثر الصحيح الذي يكون حجّة بينه وبين ربّه، إلى غير ذلك من المناهج التي مرّ بيانها.

(١) علوم القرآن عند المفسرين: ج٢ / ص٤٨٦.

الفهرس

مقدّمة ٥

المقدمات التمهيدية للتفسير.. ٧

الدرس الأول: تعريف التفسير ٩

حاجتنا إلى تفسير القرآن وتأويله ٩

القرآن وآفاقه اللامتناهية ١٣

خلاصة..١٥

الدرس الثاني: شروط التفسير والمفسّر وآدابه ١٧

١- معرفة قواعد اللغة العربية ٢٢

٢- معاني المفردات ٢٣

٣ - تفسير القرآن بالقرآن ٢٤

٤- الحفاظ على سياق الآية ٢٥

٥ - الرجوع إلى الأحاديث الصحيحة وإجماع المسلمين ٣٠

النبيّ ﷺ هو المفسّر الأوّل ٣٢

٦ - معرفة أسباب النزول ٣٤

٧ - الإحاطة بتاريخ صدر الإسلام..٣٦

٨ - تمييز الآيات المكّية عن المدنية ٣٨

٩ - الوقوف على الآراء المطروحة حول الآية..٣٩

١٠- الاجتناب عن التفسير بالرأي ٣٩

خلاصة..٤٢

الدرس الثالث: القرآن قطعي الدلالة ٤٥
الصفات الخبرية وكون الظواهر قطعيّة ٤٩
خلاصة ٥٣

الدرس الرابع: التفسير بالرأي ٥٧
الاجتهاد في فهم القرآن غير التفسير بالرأي ٦٣
خلاصة ٦٥

المناهج التفسيرية ٦٧
المنهج الأول: التفسير بالعقل ٦٧
المنهج الثاني: التفسير بالنقل ٦٧
التفسير بالعقل ٦٩

الدرس الخامس: المنهج التفسيري غير الاهتمام التفسيري ٧١
إيضاح ٧١
أنواع المناهج التفسيرية ٧٢
تفسير القرآن في ظل العقل الصريح ٧٢
القرآن والعقل العملي ٧٧
تنزيهه سبحانه عن العبث ٧٨
خلاصة ٨٣

الدرس السادس: تفسير القرآن على ضوء المدارس الكلامية ٨٥
تفسير الآيات على ضوء مدرسة الاعتزال ٨٥
التفسير على ضوء منهج الأشعري ٩٠
خلاصة ٩٤

الدرس السابع: التفسير على ضوء السنن الاجتماعية ٩٥
الوصية للوالدين ليست منسوخة ٩٦
الصبر وأثره البنّاء ٩٧

انشقاق السماء عند اختلال نظامها ٩٨
موقف المنار من المعاجز والكرامات ٩٩
خلاصة..... ١٠٥

الدرس الثامن: التفسير على ضوء العلم الحديث ١٠٧
خلاصة..... ١١٠

الدرس التاسع: التفسير حسب تأويلات الباطنية ١١١
خلاصة..... ١١٨

الدرس العاشر: التفسير حسب تأويلات الصوفية ١١٩
تفسير التستري ١٢٠
حقائق التفسير للسلمي ١٢١
لطائف الإشارات ١٢٢
تفسير الخواجة ١٢٢
كشف الأسرار وعدّة الأبرار ١٢٢
تفسير ابن عربي ١٢٢
عرائس البيان في حقائق القرآن ١٢٣
التأويلات النجمية..... ١٢٣
التفسير الإشاري بين القبول والرفض ١٢٤
خلاصة..... ١٢٩

التفسير بالنقل ١٣١
١. تفسير القرآن بالقرآن ١٣١
٢. التفسير البياني للقرآن ١٣١
٣. تفسير القرآن باللغة والقواعد العربية ١٣١
٤. تفسير القرآن بالمأثور عن النبي والأئمة عليهم السلام ١٣١

الدرس الحادي عشر: تفسير القرآن بالقرآن ١٣٣
خلاصة..... ١٣٨

الدرس الثاني عشر: التفسير البياني للقرآن ١٤١
خلاصة..... ١٤٤

الدرس الثالث عشر: تفسير القرآن باللغة والقواعد العربية ١٤٧
خلاصة..... ١٥٠

الدرس الرابع عشر: تفسير القرآن بالمأثور عن النبي والأئمة عليهم السلام ١٥١
خلاصة..... ١٥٥

الفهرس ١٥٧